



زَهْرُ الْخَمَائِلِ

محفوظة
جميع الحقوق
الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

زَهْرُ الْخَمَائِلِ

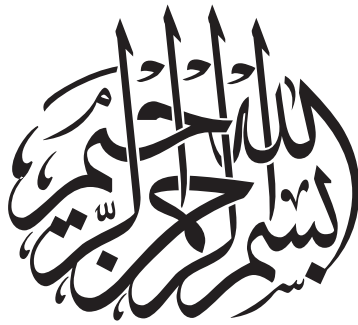
مَقَالَاتٌ فِي السُّلُوكِ وَالْعِلْمِ وَالتَّربِيَةِ

بقلم

أ. د. صالح بن فُريح البَهْلال

الأستاذ في كلية التربية في الزُّلفي

جامعة المجمعة



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

فهذه مقالات متفرقة في أغراض متنوعة، كُتبت في أوقات مختلفة، ومناسبات متعددة؛ آثرت لَمْ شملها، وجمع شتاتها؛ لتكون في مكان واحد.

وهي تنتظم موضوعاتٍ مختلفةً في السلوك والعلم والتربية.

وليس المقصود من كتابة المقال استقصاء أغراضه، ولا الإحاطة به من جميع أطرافه، وإنما هي إشاراتٌ عابرةٌ، ونظراتٌ مختصرةٌ، لعلها أن تفيد قارئاً، وتنبّه غافلاً، وتُسلي محزوناً، وتجبر مكسوراً، وتهدّي حائراً، ولعلها أن تسمو بهمةً قد خمدت، وأن تبعث موهبةً قد وُثدت.

وهي ليست على طريقة البحوث العلمية في سيرها على الأبواب والفصول والمطالب؛ بل هي منشورة دون تبويب، ولا ترتيب، وقد يطول المقال، وقد يقصر، وقد سمّيتها:

«زَهْرُ الْخَمَائِلِ»^(١)

سائلاً الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم، نافعة لعباده،
مصيبة لشريعته.

وكتبه

صالح بن فريح البهلال

٨/١٠/١٤٤١هـ

saleh.f.b@gmail.com

(١) العنوان مقتبس من كتب سابقة ألفت بهذا العنوان، ومنها: زهر
الخمائل في ذكر الأوائل للصفدي، وزهر الخمائل على الشمائل
للسيوطي.

والمقصود بالخميلة: الروضة ذات الشجر، وقيل: هي الأرض
السهلة التي تنبت، قالوا: سقى الله الخمائل بالمخايل؛ أي: سقاها
بالسحاب، قال لبيد:

بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيْمَةٍ يُرْوِي الْخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَاهُهَا
ينظر: جمهرة اللغة (٢/١٠٥٦)، أساس البلاغة (١/٢٦٧)، تاج
العروس (٢٨/٤٣٧).

ومن أبيات الشعر التي ورد فيها هذا العنوان قول الطغرائي، كما في
جواهر الأدب (٢/٤٥٠):

كذلك إذا لم ينفع المرء غيره يُعَدُّ كشوك بين زهر الخمائل
وقول محمد بن إبراهيم المعافري، كما في نفع الطيب (٦/٢٦٥):
فيا ريحُ هُبِّي بالبطاح وبالرُبَى ومُرِّي على أغصان زهر الخمائل
وسيري بجسمي للتي الرُوحُ عندها فروحي لديها من أجلِّ الوسائل

النية الصادقة، وعطاياها المدهشة

صدق النية، وحسن القصد عبادة جليلة القدر، عظيمة الأجر، بركاتها مدهشة، وثمراتها مذهلة، من هُدي لها فقد أخذ من التوفيق بنصيب وافر.

فمن أراد البركات أن تساق له سوقاً؛ وابتغى الخيرات أن تصب عليه صباً، فليعلم الله في قلبه صدق النية، فيجزل الله له العطاء، ويحسن له الجزاء؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

علّق الشيخ ابن عثيمين على الآية فقال: «متى علم الله في قلب الإنسان خيراً آتاه الخير؛ فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله»^(١).

ولما علم الله ﷻ في نفوس الصحابة صدق النية والإيمان أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

(١) تفسير القرآن من سورة الحجرات إلى الحديد (ص ٤١١).

وقد كان الإمام أحمد ينهى أن يُكتب عنه كلامه ومسائله،
فما الذي حدث بعد ذلك؟

يجيب ابن الجوزي فيقول: «فنظر الله تعالى إلى حسن قصده، فنُقلت ألفاظه وحُفظت، فقلَّ أن تقع مسألة إلا وله فيها نصٌّ من الفروع والأصول، وربما عُدمت في تلك المسألة نصوصُ الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا»^(١).

وقد توفي العلامة عبد الرحمن المعلمي عام ١٣٨٦هـ،
وقد خَلَّف مؤلفاتٍ تحوي علماً غزيراً تصل إلى (١٢٠) مؤلفاً،
ولم يطبع منها في حياته إلا القليل، وكان يقول: «إذا
رأى الله رَجَلٌ فيها إفادة، فسيأتي الله بمن يطبعها»^(٢).

فسخَّر الله لها في زماننا هذا ثلثة من خيرة المحققين
والباحثين^(٣)، فعنوا بجمعها وتحقيقها على مدى عشرة أعوام،
فخرجت مطبوعة عام ١٤٣٤هـ في أحسن صورة، وأجمل حُلَّة
في (٢٥) مجلداً.

وكذلك مُؤَلَّف: «أذكار طرفي النهار» للعلامة بكر أبو
زيد؛ إنما ألفه في الأصل لوالدته^(٤)، فانتشر انتشاراً عجباً؛

(١) مناقب الإمام أحمد (ص ٢٦١).

(٢) المدخل إلى آثار العلامة المعلمي، للشيخ علي العمران (ص ١٢٦).

(٣) وعلى رأسهم الشيخ الفاضل علي العمران، والشيخ محمد عزيز شمس، والشيخ محمد أجمل الإصلاحي.

(٤) سيرة الشيخ بكر أبو زيد لمؤلفها: صالح آل داود (ص ٣٨).

فطبع منه المكتب التعاوني بالزلفي عشرات الملايين من النسخ^(١)!

وبهذا تتأكد كلمة الإمام أحمد: وقد سئل: «بم بلغ القوم حتى مُدحوا؟»، قال: «بالصدق»^(٢).

وإن صدق النية لهو من أعظم الأسباب التي تدرء المخاطر، وتدفع المكاييد، وفي قصة يوسف عليه السلام شاهدٌ على ذلك؛ فقد أجمع إخوته أمرهم، فكادوا له، وهموا بقتله، واجتهدوا في تغييبه عن أبيهم، وكان يوسف عليه السلام غافلاً عنهم لا يناوئهم ولا يكايدهم، فماذا كان؟

كانت العاقبة ليوسف من أحسن ما يذكر في جمال العواقب، فكان يوسف النبي، وأوتي الملك، ولقب بالصدِّيق، وجاءه إخوته نادمين تائبين معتردين، ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجّداً.

وقد لخص المشهد شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال معلقاً على قصة يوسف: «من اتقى الله بصدق وعدل، ولم يتعدَّ حدود الله، وصبر على أذى الآخر وظلمه لم يضره كيد الآخر؛ بل ينصره الله عليه»^(٣).

(١) أفادني بذلك مدير المكتب الشيخ الفاضل سليمان الخيني، وقد كانت الطباعة للأذكار فقط مجردة من الكتاب.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٧/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨١/٣٥).

وقال في موضع آخر: «النية الخالصة، والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل»^(١).

وكذلك في حادثة الإفك، وما رُميت به عائشة رضي الله عنها قاله السوء، وهي غافلة بريئة، فخلد الله ذكرها، وأنزل براءتها في سورة تتلى إلى يوم القيامة.

ولذا يقول ابن أبي جمرة: «من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد بالشر؛ فإن الله يصرفه عنه»^(٢).

فليبشر بالخير ذلك الرجل صادق النية الذي فوجئ بالمكايد تدبر له، وتُعمل من خلفه وهو غافل بريء؛ بأن عاقبته نصر وتمكين، فلا تذهب نفسه حسرات؛ فالله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الرازي في الآية: «الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره، ونقذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر؛ ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك»^(٣).

وإن صدق النية لهو أعظم ما يستعان به في الإصلاح بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

(١) مجموع الفتاوى (٤٦٣/٢٨).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٦٠/٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤٧/٢٦).

فمن كان صادق النية في الإصلاح، فليبشر بأثره في الصلح بين المتخاصمين.

وبصدق النية ينال الفقير منزلة الغني المحسن؛ فقد روى أبو كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء» ^{(١)(٢)}.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٤٢٢٨) وصححه الترمذي.

(٢) فإن قيل: ما الجواب عن ما أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة، أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «وما ذلك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبّحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، فالجواب ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣١/٢) فقال: (يظهر أن الجواب وقع قبل أن يعلم النبي ﷺ أن متمني الشيء يكون شريكاً لفاعله في الأجر) ثم ذكر الحافظ حديث أبي كبشة آنف الذكر.

وقد بلغ من أثر صدق النية أن يموت الرجل على فراشه، فيدرك بصدق نيته منازل الشهداء، فقد روى سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «من سأل الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»^(١).

ويحتاج الرجل مالاً؛ فيضطر إلى أن يستدين؛ فييسر الله قضاء دينه ما دام أنه صادق النية في الوفاء، عاقد العزم على الأداء، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه»^(٢).

حتى ولو مات مديوناً فإن الله - سبحانه - ييسر من يقضي دينه، أو يتكفل عنه في الآخرة^(٣).

وينام الرجلان في وقت واحد، ويقومان في وقت واحد، فيكتب لأحدهما أجر قيام ليلة، ويُحرم الآخر؛ وذلك لاختلاف نيتهما، فقد روى أبو الدرداء رضي الله عنه قال: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه ﷻ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

(٢) صحيح البخاري (٢٣٨٧).

(٣) ينظر: فتح الباري (٥٤/٥).

(٤) أخرجه النسائي (١٧٨٨) موقوفاً، وأخرجه هو - أيضاً - (١٧٨٧)

وابن ماجه (١٣٤٤) مرفوعاً، ورجح الدارقطني في العلل الوجه الموقوف (٢٠٦/٦).

ويتصدق الرجل على محتاج، ثم يتبين له أنه غير محتاج؛ فيضيق صدره، فليبشر بأن صدقته مقبولة بإذن الله، إن كان صادقاً في نيته، متحرياً في أعطيته؛ فلقد ذكر الرسول ﷺ قصة رجل تصدق على سارق، وزانية، وغني، وهو لا يعلم عنهم، فأتي في منامه، فقيل له: أما صدقتك فقد تقبّلت^(١).

ومن المنامات التي يستأنس بها في هذا الباب ما ذكره الذهبي، أن عمرو بن الليث الصفار - وهو أحد الأمراء - رئي بعد موته، فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: أشرفت يوماً من جبل على جيوشي، فأعجبني كثرتهم، فتمنيت أنني كنت حضرت مع رسول الله ﷺ فنصرته وأعنته، فشكر الله لي، وغفر لي^(٢).

وإن صدق نيتك في نفع الناس، ومحبتك الخير لهم سبب عظيم في عود النفع عليك، ووصول الخير إليك؛ فالجزاء من جنس العمل، فمن أراد بالناس خيراً جاءته البركات تترى، وأعظم الله له أجراً.

فأمعن النظر في مقولة الإمام الشافعي الشهيرة حين قال: «وَدِدْتُ أَنْ النَّاسَ كُلَّهُمْ تَعَلَّمُوا هَذَا الْعِلْمَ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ»^(٣).

(١) أخرجها النسائي (٢٥٢٣)، وأحمد (٨٢٨٢)، وأصلها أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٨/١٠).

(٣) المرجع السابق (٨٦/١٠)، وفتح الباري، لابن رجب (٤٣/١).

يتمنى رَحِمَهُ اللهُ أن الناس كلهم ينالون العلم الذي ناله،
والخير الذي طاله، وأنه لا يَرُدُّ له ذِكر، ولا يُنسب له فيه أمر!
إنها نفس بَرَّةٌ زكية؛ متجردة لله، بعيدة عن الحقد
والأنانية، فماذا كان؟!!

كان صدق نيته، وحسن قصده سبباً في انتشار مذهبه،
وخلود اسمه إلى زماننا هذا؛ فهو أصغر الأئمة سنّاً؛ فقد توفي
وعمره ٥٤ عاماً، وقد مضى على وفاته أكثر من ألفٍ ومائتي
عام، ومذهبه الفقهي قد عبّر القرون والقارّات، وما زال ينتسب
إليه الملايين العظيمة من المسلمين!

إنها الرفعة التي لا تسامى، والشرف الذي لا يغالب.
والخلاصة أن صدق النية، وحسن القصد سبب للعطايا
العظيمة، والبركات الجسيمة، فهنيئاً لصادق النية؛ إنه لذو حظ
عظيم.



من بركات نصره التوحيد

توحيد الله وإفراده بالعبادة أعظم غاية خُلق لها المكلف، ومن استسلم لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، وتذلل له بالعبودية، فقد تسنم ذروة الشرف، ونال غاية العز، وحاز ناصية الفخر.

وبركات التوحيد لا تكاد تُحصى؛ ويكفي أن يُعلم بأن بركات العبادات كلّها راجعة إلى التوحيد، تستظل بفيئته، وتصب في ثبجه، وتقبس من نوره.

بيد أن هناك بركةً لطيفة أشار إليها بعض أهل العلم؛ ألا وهي أن ناصري التوحيد، الداعين له، يبارك الله لهم في ذريتهم ديناً ودنيا.

أما الدين فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

قال العلامة الشنقيطي: «اعتزال الكفار والأوثان، والبراءة منهم؛ من فوائده: تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة»^(١).

وأما بركة نصره التوحيد على الذرية في الدنيا، فقد أشار

(١) أضواء البيان (٢/٤٦٤).

إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فَإِنَّهُ لما تكلم عن محنة خلق القرآن ألمح إلماحة إلى بركة نصر السُّنَّة على الذرية فقال: «دامت هذه المحنة على المسلمين بضع عشرة سنة في أواخر خلافة المأمون، وخلافة أخيه المعتصم، والواثق بن المعتصم، ثم إن الله تعالى كشف الغمة عن الأمة في ولاية المتوكل على الله الذي جعل الله عامة خلفاء بني العباس من ذريته دون ذرية الذين أقاموا المحنة لأهل السُّنَّة، فأمر المتوكل برفع المحنة، وإظهار الكتاب والسُّنَّة، وأن يروى ما ثبت عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين من الإثبات النافي للتعطيل»^(١).

وإن الناظر لتاريخ الدولة السعودية يجد ذلك الاتفاق التاريخي الذي تم عام (١١٥٧هـ) بين الإمامين محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله - والذي اتفقا فيه على نصرة التوحيد، ومحاربة الشرك، وقد تعرضت الدولة السعودية في عهدها الأول والثاني لحملات شرسة شديدة مناوئة تكاد تذهب بها؛ بل قد ذهبت، فما لبثت إلا وعادت فتيةً في الدولة السعودية الثالثة، ولا زالت على التوحيد، والله الحمد.

بل صارت نصرة التوحيد بركةً على نسل غير المكلفين، فهدهد سليمان عليه السلام انتصر للتوحيد، وغضب من الشرك الواقع في مملكة سبأ، وجاء مبلغاً سليمان عن ذلك المنكر العظيم، قال الله - تعالى - على لسانه: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ [النمل: ٢٤].

فصار قتل كل هدهد محرماً، وهذا عند جمهور أهل العلم استدلالاً بنهي الرسول ﷺ عن قتل أربع، وذكر منها الهدهد^(١).

قال العلامة ابن عثيمين معللاً ذلك: «الهدهد طائر معروف، نهي عن قتله احتراماً له، وذلك في قصته مع سليمان؛ فمن أجل أنه كان سبباً في إسلام أمة، كان بركة على جنسه من الطيور»^(٢).

ولما ناوأ الوزغ إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام بنفخ النار عليه، لما ألقى فيها كان شؤماً على بني جنسه، فأمر الشارع بقتل كل وزغ، فقد روت أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام»^(٣).

وروت سائبة، مولاة الفاكه بن المغيرة، قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً، قلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعون بهذا الرمح؟ قالت: «هذا لهذه الأوزاغ نقتلن به؛ فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم عليه السلام - عليه الصلاة والسلام - حين ألقى في النار، لم تكن في الأرض دابة إلا

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٦٧).

(٢) شرح بلوغ المرام، للشيخ ابن عثيمين (٢١٧/١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٢٢٣٧).

تطفئ النار عنه غير الوزغ، كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله»^(١).

قال العلامة ابن عثيمين: «جعل هذا الوزغ ينفخ النار على إبراهيم من أجل أن يشتد لهبها مما يدل على عداوته التامة لأهل التوحيد والإخلاص؛ ولذلك ينبغي للإنسان أن يتتبع الأوزاغ في بيته، وفي السوق، وفي المسجد، ويقتلها»^(٢).

والناظر في النصوص يجد دوابَّ أشدَّ خطراً، وأكثر ضرراً، قد أمر الشارع بقتلها؛ إلا إن الدويبة الوحيدة التي ورد النص مرتباً الأجر في قتلها هي الوزغ، والذي يظهر أنه لأجل هذا المعنى، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل وزغة في أول ضربة فله كذا وكذا حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة - لدون الأولى - وإن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة - لدون الثانية -»^(٣).

ومن لطيف ما ذكره أهل العلم في قتل الوزغ أنه يستثنى من القاعدة الفقهية: «الأجر على قدر المشقة» فكلما زادت الضربات نقص الأجر»^(٤).

فسبحان من جعل التوحيد سبباً للعز والسعادة، وجعل الشرك سبباً للذل والشقاوة.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٢٣١) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٩٣/٣).

(٢) شرح رياض الصالحين، للشيخ ابن عثيمين (٦/٦٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٠). (٤) آثار المعلمي (١٤/٢٧١).

العارفون لا يعجبون بأنفسهم

من أدواء النفس الخفية - والتي يحتاج صاحبها يقظة على الدوام، حتى يسلم منه - داء العُجب بالنفس، فقد يمن الله على بعض عباده بنعمة من النعم، من علم، أو مال، أو جاه، أو موهبة حسنة، فيحسب غيرُ الموفق من أولئك أنه ابن بجدتها، وأبو عُذرتها، وأنه ابن جَلاها، وطلّاع ثناياها، فربما صعرَّ خده للناس، ونأى بجانبه عنهم، وربما استنكف عن قبول الحق، وهذه مهلكة ومزلة قدم، وما يؤذي فيها المرء إلا نفسه، والمرء إذا لم يلحظ نفسه فإنها تقوده إلى العطب؛ كما قال - تعالى -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقد ترجم الذهبي لأحد العلماء الكبار، فقال: «الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي» لكنه ذكر بأنه قد أصيب بداء العُجب، فقال: «كان لا يَعُدُّ لأحدٍ من الفقهاء وزناً» ثم ذكر عاقبته فقال: «كان من بحور العلم، فأخمله العُجب»^(١).

وقد حذق الإمام ابن القيم - كعاداته - فصوّر هذا المشهد، فقال: «مواهب الرّب - تبارك وتعالى - تنزل على

القلب والروح، فالنفس تسترق السمع، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب - وثبتت؛ لتأخذ قسطها منها، وتصيِّره من عدتها وحواصلها.

فالمسترسل معها، الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك، فيينا هو في موهبة القلب والروح، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها، فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به، والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال، فكيف بما هو أعظم خطراً، وأجل قدراً، من المال بما لا نسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به - ولا بد - إلى طرف مذموم من جرأة، أو شطح، أو إدلال، ونحو ذلك، فوالله كم ههنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من أين أتيت؟ ومن أين ذهبت؟ ومن أين أصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد^(١).

ومكمن خطورة هذا الداء أنه ربما أصيب به الإنسان وهو لا يشعر؛ ولذا كان العارفون الموفقون يحاذرون منه أشد الحذر، ويحكمون إغلاق الأبواب التي يظنونها من مداخله.

ومن دقيق ما يذكر هنا ما جاء عن عمر بن عبد العزيز رحمته الله وقد قيل له: إن متّ ندفك في حجرة عائشة مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم؟ فقال: «لأن ألقى الله بكل ذنب غير

الشرك أحبُّ إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك»^(١).

ومن ذلك ما جاء عن الحافظ عبد الغني المقدسي أنه على المنبر لا يقرأ إلا من كتاب مع أنه حافظ كبير لا يكاد يسأل عن حديث إلا ذكره وبَيَّنَّه، وذكر صحته أو سقمه، ولا يسأل عن رجل إلا قال: هو فلان بن فلان الفلاني، ويذكر نسبه!

فقليل له: لم لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: أخاف العُجب^(٢).

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «العارفون، وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل، والانكسار، ومطالعة عيوب النفس، واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط، بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقنه تمس قُرْبُوس^(٣) سَرْجِه؛ انخفاضاً وانكساراً وتواضعاً لربه - تعالى - في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها - أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء، فالرجل: من صان فتحه، ونصيبه من الله،

(١) صيد الخاطر (ص ٤٣٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٤٨ - ٤٤٩).

(٣) القربوس: هو قسمُ السرج المعوجُّ قدامَ المقعد، ومن مؤخِّره، وهما قربوسان. ينظر: لسان العرب (٦/١٧٢).

وواراه عن استراق نفسه، وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به، فيا له من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها، والله المستعان^(١).

ومن عجيب ما يذكر هنا ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حمل قربةً على عنقه، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، ما حملك على هذا؟

قال: إن نفسي أعجبتني، فأردت أن أذلها!^(٢).

فرضي الله عن الفاروق وأرضاه، نفسه هي النفس التقية الزكية الطاهرة البرّة، ومع ذلك يحاسبها هذه المحاسبة!

وهكذا الموفقون يحاسبون أنفسهم، ويكبحون جماحها إن رأوا منها تفلتاً.

والمتمأمل في سير الأكابر من أهل العلم يجد أن سيرهم مُمَرَّعةً بالتواضع وخفض الجناح، متجافيةً عن العُجب، نائيةً عن مقاعد الكِبَر، وقد ضرب الإمام أحمد رحمته الله في هذا المعنى بسهم وافر، فيحدث عنه صديقه يحيى بن معين، فيقول: «ما رأيت مثل أحمد، صاحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير»^(٣).

(١) مدارج السالكين (١/٥٢٤).

(٢) تاريخ دمشق (٤٤/٣١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/٢١٤).

ويقول عنه صاحبه المروزي: «قلت لأبي عبد الله: إن بعض المحدثين قال لي: أبو عبد الله لم يزهّد في الدراهم وحدها، قد زهّد في الناس؟ فقال: ومن أنا حتى أزهد في الناس! الناس يريدون أن يزهّدوا فيّ»^(١).

ويقول - أيضاً -: «سمعت أبا عبد الله؛ أحمد بن حنبل، وذكر أخلاق الورعين، فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟!»^(٢).

ويقول - أيضاً -: «قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعين لك! فتغرّغت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً»^(٣).

ويقول محمد بن موسى: «رأيت أبا عبد الله - يعني: الإمام أحمد - وقد قال له خراساني: الحمد لله الذي رأيته. قال: اقعد، أي شيء ذا؟ من أنا؟»^(٤).

ويقول إسماعيل بن إسحاق الثقفي: «قلت لأبي عبد الله - أوّل ما رأيته -: ائذن لي أقبل رأسك؛ فقال: لم أبلغ أنا ذلك»^(٥).

(١) الورع للمروزي (ص ١٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٦).

(٣) المرجع السابق (ص ١٥٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١١).

(٥) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٣٦٧).

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فقد تحدث عنه تلميذه ابن القيم فقال: «لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكْدِي وابن المُكْدِي وهكذا كان أبي وجَدِّي
وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إنني إلى الآن
أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً، وبعث
إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات
بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير إن يأتنا من عنده ياتي^(١)

فتأمل **أيها القارئ** الكريم في قدر نفس شيخ الإسلام
عنده من خلال كلامه هذا؛ لترى ترويضاً كبيراً منه لنفسه،
ومطامنة عظيمة لها، وهذا - ولا شك - من أسباب التوفيق لهذا
الإمام الكبير.

ومثل ذلك جاء عن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فكان يقول عن
نفسه:

(١) مدارج السالكين (١/٥٢٤) وعدد الأبيات التي أوردها ابن القيم ١١ بيتاً.

بُنِّي أَبِي بَكَرٍ كَثِيرُ ذُنُوبُهُ فَلَيْسَ عَلَى مَنْ نَالَ مِنْ عَرَضِهِ إِثْمٌ
 بُنِّي أَبِي بَكَرٍ جَهُولٌ بِنَفْسِهِ جَهُولٌ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتَى لَهُ الْعِلْمُ
 بُنِّي أَبِي بَكَرٍ غَدَا مُتَصَدِّراً يَعْلَمُ عِلْماً وَهُوَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ
 بُنِّي أَبِي بَكَرٍ غَدَا مُتَمَنِّياً وَصَالَ الْمَعَالِي وَالذُّنُوبَ لَهُ هَمٌّ^(١)

يصف نفسه بالجهل، وقلة العلم؛ وهو العالم التَّحْرِير، وهكذا الأكابر أذكىاء أنقياء؛ بعيدون عن الزهو بنفوسهم، والتغني بأعمالهم، وفي ذلك يقول الماوردي: «قلما تجد بالعلم معجباً، وبما أدرك مفتخراً، إلا مَنْ كان فيه مُقِلّاً ومُقَصِّراً؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره.

فأما مَنْ كان فيه متوجهاً، ومنه مُستَكثراً؛ فهو يعلم من بُعدِ غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدُّه عن العُجب به. وقد قال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شَمَخَ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صَغُرَتْ إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً»^(٢).

ومما يذكر هنا ما حدثني به فضيلة شيخنا العالم العابد عبد العزيز العقل - متَّعه الله بالصحة والعافية - أنه لما كان

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ٢٧٢).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٧٣).

مدرّساً في جامعة الإمام محمد بن سعود - فرع القصيم - شرح لطلابه حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(١).

قال الشيخ: فوقع في نفسي سؤال هو: مَنْ مجدّد هذا العصر؟

واستبهم عليّ تعيين المجدد، وانصرفت من الكلية، وأنا أُعْمِلُ رأيي في هذا السؤال، فلم أجزم فيه بشيء، فنمت بعد الظهر، فرأيت في المنام سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز جالساً متربّعاً مستقبل القبلة، فأقبلت عليه فعانقته وقبلته، وإذا بي أسمع صوتاً لا أرى صاحبه يقول: هذا مجدّد هذا العصر.

يقول الشيخ عبد العزيز العقل: «فاستيقظت من النوم جذلانَ مسروراً، وصرت أتحين لقائي بالشيخ حتى أبشره بالرؤيا، فيسرّ الله لقاء الشيخ بعد أيام، فبشرته بالرؤيا، وكنت أترقب سروره بها، لكن الشيخ تشاغل عنها، ولم يحفل بها، ولم يُعْرِها اهتماماً».

والخلاصة أنك إذا رأيت الرجل كلما توالى عليه النعم زاد افتقاره والتجاؤه لربه، وتضاعف تواضعه للناس، فاعلم بأنه كيّسٌ قد تفيأ ظلال التوفيق، وأخذ منه بسبب متين، وأوى فيه إلى ركن شديد.

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١).

وإذا رأيت الرجل كلما توالى عليه النعم تضخمت نفسه،
وتراءت له أعماله، فاعلم بأنه عاثر الحظ والرأي، دثاره
الخيبة، وشعاره الخذلان، وإن طال به الزمان، وكثر حوله
الأعوان.



سكرة المنصب

هنا موقف عابر لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقع له على سجيته، لم يستغرق سوى وقت يسير جداً، ولكنَّ التاريخ دَوَّنَه ورواه، فتداوله الرواة، وسار على الأفواه، ووقع في النفوس موقعاً جليلاً، فما هذا الموقف؟

يحكي هذا الموقف عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فيقول: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك! سمعت عنده، فَعَشِي^(١) السراج، وإلى جانبه غلام قد نام، قلت: ألا أنبّهه؟ قال: لا، دعه، قلت: أنا أقوم، قال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام وأصلح السراج، ثم رجع، فقليل له: يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضرّني؟ قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر^(٢).

نعم لقد قام وهو عمر، ولكن رجع ولفعله في النفوس جلالة، ولقوله في القلوب عظمة.

وهذه هي العظمة حقاً أن تبلغ هذا المرتقى، ثم لا تتغير

(١) أي: أظلم.

(٢) السير، للذهبي (١٣٦/٥)، سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم (ص ٤٦).

أخلاقك، ولا تتبدل طباعك، وأصحابك هم أصحابك، كما قال أبو تمام:

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلُفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ^(١)

وهذه هي الأخلاق النبوية، فالرسول ﷺ قد تسنم ذروة الشرف، وبلغ الرفعة التي لا تسامى، والرتبة التي لا يسمو إليها أمل، فهو سيد ولد آدم كلهم أجمعين، ومع ذلك كان متواضع النفس، خافض الجناح، يأتي السائل إلى مجلسه ﷺ لأول مرة فلا يميزه عن غيره، فيسأل فيقول: أيكم محمد؟ والنبى ﷺ متكئ بين ظهرانيهم!^(٢)

وتُسأل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «كان يخيظ ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»^(٣).

وفي المجتمع أناس ذوو نفوس كبيرة تولوا مناصب باذخة، فشرّف بهم المنصب ولم يشرفهم، وتزيّن بهم ولم يزيّنهم، هم على العهد كما قال الأول:

تزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوي ولا يتغير^(٤)

(١) ديوان أبي تمام (ص ٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣).

(٤) هذا البيت ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد (٥٢٧/٢)، وفي مفتاح دار السعادة (١٢٧/١)، ولم ينسبه، ولم أعثر على قائله.

قد تحلّوا بالتواضع، وازدانوا بالإحسان، اتخذوا المنصب وسيلة لخدمة الناس، وتسهيل أمورهم، وقضاء حاجاتهم.

أما النفوس المَهينة الضعيفة فتجدها تغرق في كأس ماء، وتنزلق أقدامها في أدنى منصب، وتهز مبادئها لعاعةً دنيا، وتُوْهي قواها كلمةً مديح.

وتجد بعضهم رئيساً على اثنين، وقد شمخ بأنفه شبرين، ولسان حاله بيت سُحيم بن وَثيل الرّياحي:

أنا ابنُ جَلا وطَلَّاعُ الشنايا متى أضع العمامةَ تعرفوني^(١)

وقد سمى هذه الحال الإمام ابن القيم سُكْراً، فقال: «يحصل السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال.. ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه»^(٢).

ومن آثار هذا السكر أن ينظر أحدهم إلى موظفيه من علو، ويتعامل معهم برسمية، فلا يتلطف معهم بالكلام، ولا يلقاهم بابتسام، ولا يحب لأحدٍ منهم أن يتفوق عليه، وكلُّ نجاح فلا بد أن ينسب إليه.

ومن آثاره أيضاً ما حدّث به أحدهم قال: كان في سن طلابي، وكنت أبذل له النصح والإرشاد، ثم فرّقت بيننا

(١) الأصمعيات (ص ١٧).

(٢) روضة المحبين (ص ١٥٣).

السُّنُون، فصرت لا أراه إلا لماماً، ولكنني ألقاه حسن البشر، ثم تولى منصباً، فصار يلقاني ثقیل النفس، منقبض الابتسامة، مستعجلاً، وكأنني سأطلب حر ماله!

وقد أشار ابن القيم إلى هذا فقال: «كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيّله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي؛ وذلك غلط»^(١).

وإذا رأيت الرجل تندفن معه المروءات إذا جلس على الكرسي، فاعلم بأنه قد لبس حذاء أكبر من رجله، فيوشك أن يعثر!

وإن أبلغ واعظ لمن عظمت نفسه في منصب أن يتذكر قوله - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ (٧) إِنَّ إِلَّكَ الرَّجْعُ ﴿٨﴾ [العلق: ٦ - ٨]، فمن أيقن أنه إلى ربه راجع، وأنه إليه تصير الأمور، أذعن واستكان، وعرف قدر نفسه؛ ولم يطع.

وأن يتذكر أيضاً أنه لا يدوم أحد في منصبه؛ فمن العقل والحصافة أن يجعل له أثراً طيباً قبل رحيله؛ فالأمر على ما قال ابن دريد:

(١) بدائع الفوائد (٣/١٣٢).

وإنما المرء حديثٌ بعده فكُن حديثاً حسناً لمن وعى^(١)

وأيضاً فالأيام دول، والدنيا غير مأمونة العواقب؛ فربما اغتنى هذا الفقير الذي أغلقت في وجهه الباب، وارتفع ذلك المسكين الذي أغلظت معه الخطاب، كما قال الأضبط بن قُرَيْع:

لا تهينَ الفقيرَ علَّك أن ترُكعَ يوماً والدهر قد رفعه^(٢)

ويقول عدي بن زيد:

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَه من اليوم سؤلاً أن يكونَ له غدٌ^(٣)

ومما يذكر هنا ما رواه علقمة بن وائل بن حُجر، عن أبيه، وكان وقتها من ملوك اليمن، فجاء وأسلم، فأقطعه رسول الله ﷺ أرضاً، يقول وائل: فأرسل معي معاوية أن أعطيها إياه، قال: فقال لي معاوية: يا وائل، إن الرمضاء قد أصابت باطن قدمي، فأردفني خلفك. فقلت: لا تكون من أرداف الملوك! قال: فقال: أعطني نعلك، فقلت: انتعل ظل الناقة.

ومضت السنون، واستخلف معاوية، وزاره وائل، فلم تمنح تلك السنون المتطاولة موقف وائل هذا من ذهن

(١) العقد الفريد (١/١٩٤).

(٢) أمالي ابن الشجري (٢/١٦٦).

(٣) التذكرة السعدية (ص ٢٥).

معاوية رضي الله عنه، ولكن معاوية - وهو الحليم - لم يكن ليجازي وائلاً بما فعل؛ بل تلقّاه، وأكرمه، وأجلسه معه على السرير، وسأله: أسريري هذا أفضل أم ظهر ناقتك؟ فلم يكن من وائل رضي الله عنه إلا أن أعلن اعتذاره، فذكر سبب ذلك الجهل الذي وقع منه، وقال: يا أمير المؤمنين، كنت حديث عهد بجاهلية وكفر، وكانت تلك سيرة الجاهلية.

ثم أعلن وائل ندمه على ما فات، وقال: «وددت أنني كنت حملته بين يدي»^(١).

وفي هذه القصة عظة بالغة لمن تولى منصباً ألا يزهو على أحد؛ بل يلزم التواضع، ويخفف الجناح حتى يسلم من ذلك اليوم الذي يتجرع فيه غصص الندم، ويقول: ليتني أكرمت فلاناً، ولم أحتقر فلاناً^(٢).

وما يقال لصاحب المنصب يقال للمشاهير وأصحاب الثراء أن يحاذروا من أن تصيبهم سكرة الشهرة والمال وهم لا يشعرون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



(١) القصة أخرجها أحمد في مسنده (٢٧٢٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١١٧) والصغير (١١٧٦) وغيرهم، وصحّحها ابن الملقن في البدر المنير (٦٩/٧).

(٢) وفي كتاب الهفوات النادرة، لأبي الحسن الصابئ قصة مشابهة لما جرى بين معاوية ووائل رضي الله عنه رقم (٣٤١).

شهوة الكلام

تصوّر مسألة أو غلت في بحثها، فجمعت أشتاتها، واستقصيت أطرافها، واستبطنت دخالها، وبلغ منك الجهد في تحريرها، فبانت لك دقائقها، وأويت في راجحها إلى ركنٍ شديد، وأصلّ متين، ثم جمعت - مرةً - مجلسٌ مع ذوي البسطة في العلم، فابتدروا مسألةً للنقاش، فكانت مسألتهم تلك المسألة التي لا تزال ترنُّ في رأسك، لقرب عهدك بها، فما أنت فاعلٌ في هذا المقام، وأنت تراهم يدوكون في المسألة دون أن يبلغوا فيها غاية؟

لا شك أن كثيرين سيقولون: إن كلامك حتمٌ لازم؛ لأنك فقهت المسألة، وأحطت بها علماً، وسكوتك ضعف ومهانة!

وربما قال بعضهم: إن الحديث الآن فرصتك فلا تفوتها! لكن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ لَهُ نظر آخر يغيب عنا كثيراً، وقد حصل له موقف شبيه بهذا، حكاه ابن عبد الهادي، المعروف بـ«ابن المبرّد» فقال: «أُخبرت عن القاضي علاء الدين ابن اللّحام أنه قال: ذكر لنا مرة الشيخ - يعني: الحافظ ابن رجب - مسألة فأطنب فيها، فعجبت من ذلك، ومن إتقانه لها،

فوقعت بعد ذلك بمحضر من أرباب المذاهب وغيرهم، فلم يتكلم فيها الكلمة الواحدة، فلما قام، قلت له: أليس قد تكلمت فيها بذلك الكلام؟ قال: إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت من الكلام في هذا المجلس»^(١).

فتأمل هذه الحال التي تشتهي النفوس فيها الكلام، ومع ذلك يلوذ ابن رجب بالصمت، فلا ينبس ببنت شفة؛ وهو ابن بَجْدَتِهَا، خوفاً من أن يُخْدَشَ إخلاصه، أو أن تتأثر نيته قائلاً: «إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت من الكلام في هذا المجلس».

فَلِلَّهِ دُرٌّ هذه النفس الطاهرة!

وإنه لمقام عظيم؛ بمثله ارتفع القوم، وقارن هذه الحال بأناس في المجالس يستيقنون الإجابة، وهم لم يُسْأَلُوا، ويتصدرون على الناس، وهم لم يُصَدَّرُوا، ويتكلمون بما لم يحيطوا بعلمه.

والراغب في النجاة عليه أن يجاهد نفسه في دفع هذا الداء؛ إذ ليس بالضروري أن يشارك في كل مسألة، وأن يكتب في كل نازلة، وليس بالضروري أن يغرد في كل وسم، وأن يتحدث عن كل حدث، وليس بلازم أن ينشط في النقاش في كل مجموعة!

(١) الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب الإمام أحمد (ص ٥٢).

وليجعل كلمة الفضيل بن عياض نصب عينيه دائماً: «من أحب أن يُذكر لم يُذكر، ومن أحب ألا يُذكر ذُكر»^(١).

وأنزل كلمة الفضيل على موقف ابن رجب هذا، كيف دَوَّنت الكتبُ موقف ابن رجب هذا؟!

وكيف تروّاه الناس وحفظوه، وعدّوه من محاسن هذا الحافظ الكبير؟!

ولم يكن يعلم رَحِمَهُ اللهُ أن هذا الموقف سيكون له ذكر حسن عند الناس؛ فيرجى أن يكون من المخلصين، وهو القائل: (رائحة الإخلاص كرائحة البخور الخالص، كلما قوي ستره بالثياب، فاح وعبق بها)^(٢).

فإن قيل: ما الضابط في هذا؟ وهل ينبغي للمرء أن يسكت أبداً؟

فالجواب عن هذا بيّنه الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ فقال: «ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، فإن أعجبه الصمت فليتكلم، ولا يفتر عن محاسبة نفسه؛ فإنها تحب الظهور والثناء»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٢).

(٢) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب، تحقيق: طلعت الحلواني (٢/ ٧٥٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٤).

القرآن جلاء القلوب

المغبون كل الغبن من قعد عن القرآن، ولم ينهض به شرفاً، ولم ينل منه أجراً، ولم يصب فيه فهماً؛ فليس شيء أنفع للإنسان من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معانيه؛ فإنه يُطلع العبد على أسرار السعادة، ويكسبه أسباب السيادة.

ومهما رأيت من مفاخر تأخذ بالألباب، ونياشين تذهب بالأبصار، فإن لم يرد أصحابها على القرآن، وينهلوا من معينه؛ فإن ظمأ بالغا لا يكاد يفارقهم، ونقصاً بيناً لا يزال يساورهم، وإن تسربلوا في المفاخر، وتغنّوا بالأمجاد.

وإذا رأيت من بعض قراء القرآن همماً حقيرة، وعقولاً خاملة؛ فلأنهم لم يتدبروا آياته، ولم يتفقهوا حكمه وعظاته؛ فالقرآن «كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بجست معينه، فجر لها ينابيع الحكمة تفجيراً»^(١).

وقد قال الصحابي المقرئ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من

أراد العلم فَلْيُثَوِّرَ القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»^(١).
ومعنى: «فَلْيُثَوِّرَ القرآن»؛ أي: لِيُنَقِّرْ عنه، ويفكر في معانيه
وتفسيره وقراءته^(٢).

ونحن في زمن شاعت فيه شبه الباطل، وتزينت فيه
الفتن، وتزخرت فيه الضلالة بصورة لم تكن من قبل، فأصيب
من جرّاء ذلك بعض المسلمين بمقتل؛ فالتبس عليهم طريق
الحق، واستحوذت عليهم الحيرة، وتلجلجت عليهم الشُّبه،
فصاروا ينادون بلسان الحال: أين الطريق؟

وإن الشفاء كلّ الشفاء، والرّواء كلّ الرّواء أن يقبل هؤلاء
على تدبر كلام الله، والتفكر فيه؛ فلن يجدوا مخرجاً من
الحيرة، ولا مناصاً من الوحشة، ولا فرجاً من الضيق الجاثم
في صدورهم إلا في تدبر كتاب الله.

«فمن تدبر القرآن تبين له المراد، وعرف الهدى
والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج»^(٣).

وهذه قصة كتبها وعایش أحداثها معالي الشيخ عبد الله
المنيع^(٤) - وفقه الله - عن رجل منحرف الفكر، اهتدى لما أقبل
على القرآن، يقول معالي الشيخ: «كنت في جلسة مع أحد

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٦).

(٢) النهاية، لابن الأثير (٢٢٩/١).

(٣) فتاوى ابن تيمية (٩٤/١٥).

(٤) جريدة الرياض عددها (١٥٤١٥) بتاريخ ١٤٣١/٩/٢٨هـ.

إخواننا ذوي الشفافية في الدين - علماني - وقد جرى الحديث معه حول الحياة الدنيا، وأن الحياة محدودة ومتبوعة بحياة أبدية الناس فيها فريقان، فريق في الجنة وفريق في السعير، خالدين في الحالين إلا من شاء الله.

يقول الشيخ عبد الله: «فذكر أن ما قلته له محل نظر، وليس لديه ما يؤكد هذا القول، ولكنه يرى أن الإنسان يجب عليه أن يحترم أخاه الإنسان، وأن يعيش معه تعايشاً سلمياً بغض النظر عن ديانته».

ثم قال الشيخ عبد الله: «واشتد عليّ هذا الأخ، ووصفني بالرجعية والتأخر عن إدراك معنى الحياة والوجود، ولكنني استعرت قول رسول الله ﷺ حينما قال: «اللَّهُمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون»^(١). وقلت: اللَّهُمَّ اهد أخي؛ فإنه لا يعلم.

وقلت له: يا أخي هذا شيك بعشرة آلاف ريال في مقابل أن تقرأ كتاب الله مرة واحدة بتأمل وتدبر، كأنه رسالة مرسلتك إليك من عزيز عليك، وأن تعاهدني على ذلك، وأن تحدد لي معك جلسة أخرى بعد انتهائك من القراءة، فأخذ الشيك وأعطاني عهداً ألا يصرفه إلا بعد القراءة».

(١) بهذا اللفظ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٧٥) وقال عقبه: «هذا مرسل»، والمشهور بلفظ: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون» أخرجه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

فماذا صار بعد؟!

يقول الشيخ عبد الله: «وبعد أسبوع اتصل بي وطلب تحديد وقت للجلسة الثانية، حيث أتم قراءة القرآن، وعند الاجتماع به أعاد لي الشيك حيث لم يصرفه، وأعطاني شيكاً بعشرين ألف ريال، وقال: أما شيكك فقد كان له أثر كبير في إخراجي من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الحقيقة واليقين، وأسأل الله أن يجزيك عني خير ما جازى به داعياً إلى ربه، فقد قرأت كتاب الله وفاءً بالعهد، فوجدت فيه من العظة والعبر، وأسباب حياة القلب ما قادني إلى الأمل من الله أن أكون بعد الموت من فريق الجنة، وأما الشيك الآخر المسحوب مني لك فهو جزاء إنقاذك إياي من ظلمات الشك والحيرة إلى أنوار اليقين. فقلت: يا أخي ما رأيك أن نتبرع بالشيكين لصالح جمعية تحفيظ القرآن شكراً لله على هذه النتيجة المباركة».

يقول الشيخ عبد الله: «ثم قال هذا الرجل: يا أخي والله ثم والله ما كان مني ومن إخواني العلمانيين من الشك والريب إلا نتيجة الجهل والكبر والتكبر على الاتجاه إلى أسباب الهداية والرشاد، فوالله - وأنا اليوم أعرف من أحلف به - ما جعلنا بهذا المسلك الأثيم من الشك والحيرة والارتباب - بل قد يصل الأمر إلى الكفر بالله - إلا جهلنا بكتاب الله، وبُعدنا عن الأخذ بحبله المتين، وصراطه المستقيم».

فانظر في كلام هذا الرجل، وأنه لما أقبل بصدق على كلام الله طالباً الهدى منه تبين له طريق الحق؛ وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] علّق على الآية العلامة السعدي فقال: «حُسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها»^(١).

ثم تصريح هذا الرجل بأن الذي كان يمنعه من الهداية سابقاً هو الجهل والكبر والتكبر؛ وهذه حقيقة يقينية أن من كابر طريق الحق، وسلك مسالك الشك، فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر، حتى لو قرأ القرآن، ورأى كل آية، وسمع كل حجة، ولا مس كل حقيقة؛ فإنها لا تزيده إلا ضلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَفَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقال: ﴿وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الاسراء: ٦٠]، وقال: ﴿سَاصِرُفٌ عَنَّا يَتَّقِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة على الآية الأخيرة: «أنزع عنهم فهم القرآن، فأصرفهم عن آياتي»^(٢).

وزاد هذا المعنى بسطة أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة،

(١) تفسير السعدي (ص ٧٥٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٥٦٧).

فقد عدّد موانع فهم القرآن، فقال: «ومن ذلك أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلىً بهوى مطاع؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فهو كالجرّب^(١) على المرأة، يمنع من تجلّي الحق؛ فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرأة^(٢)».

فإلى كل من اعترته الريبة في دينه، وطاوله الشك في عقيدته، حتى كاد صدره يتميز من الحيرة أقبل على القرآن، قاصداً طريق الحق، باحثاً عن الهدى، فثمّ هداية السالك، وأمن الخائف، وثمّ راحة البال، وهناءة القلب، وثمّ ارتواء الغليل، وشفاء العليل.



(١) أي: كالصدا. ينظر: لسان العرب (١/٧٦٧).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ٦١).

من وثب إلى صلاته صلحت أمور حياته

تأمل لفظ عائشة رضي الله عنها وهي تصف قيام النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر؛ يحكي وصفها الأسود بن يزيد وهي تقول: «كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل، ويحيي آخره، ثم إن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته، ثم ينام فإذا كان عند النداء الأول^(١) قالت: وثب، ولا والله ما قالت: قام! فأفاض عليه الماء، وإن لم يكن جنباً توضأ وضوء الرجل للصلاة ثم صلى ركعتين^(٢)».

فأمعن النظر في كلمة: «وثب» وكيف أن عائشة رضي الله عنها عدلت عن كلمة: «قام» إلى كلمة: «وثب» وكيف أن الأسود رضي الله عنه قد لفت انتباهه هذه الكلمة، فصار يحكيها مقسماً عليها قائلاً: «قالت: وثب، ولا والله ما قالت: قام!».

وقارن هذه اللفظة بما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحبه^(٣) إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا

(١) المقصود بالنداء الأول هو أذان الصبح الذي بعد طلوع الفجر، ينظر: فتح الباري لابن رجب (٣١٦/٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٩).

(٣) في بعض النسخ: «وحبه» بالباء، وفي بعضها: «وحيه بالياء». ينظر: مسند الإمام أحمد، طبعة دار المنهاج، بإشراف الشيخ المحدث =

ملأكتي: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه، من بين حبه وأهله إلى صلاته؛ رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي»^(١).

فأمعن النظر في هذين اللفظين: «وثب، وثار» وما يحملان من معنى الانتهاض الفوري للصلاة، وسرعة المبادعة عن الفراش والنام.

وفي ذلك سرٌّ بيّنه ابن القيم فقال: «تأمل معنى «ثار» ولم يقل: قام؛ لأن القيام قد يقع بفتور؛ فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع؛ حذراً من فائتٍ ما»^(٢).

فرحم الله امرأً سمع النداء فلم يتوان، ولم يتراخ؛ بل ثار من فراشه، ووثب من منامه، مبادراً للصلاة؛ لم يصدّه عن ذلك لذة نوم، ولا هناة فراش، ولا دِفء منام، ولا برودة جو، أولئك هم الموفقون.

وإن هذا القيام الفوري عند سماع النداء، ليست فائتته أداء الصلاة في وقتها مع الجماعة فحسب؛ بل إنه يربي الإنسان على أن يأخذ أموره في الحياة بقوة، وأن يبادر الفرصة، فلا يضيعها بالتسويق والتأجيل.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ فِي مقال له بعنوان: «لا تؤجل»:

«كان أبي رَحِمَهُ اللهُ كلما أيقظني لصلاة الصبح يقول لي: «لا

= أحمد معبد (٢/ ٩١٩ - ٩٢٠).

(١) أخرجه أحمد (٣٩٤٩)، وصحح الدارقطني وقفه كما في العلل (٥/ ٢٦٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٧٨).

تترأخ، أقفز قفزاً» فأتراخى وأتكاسل، ثم أتناوم فلا أurd، أو أردّ ولا أقوم، حتى يمل فيدعني.

وأنا أعض أصابعي الآن ندماً؛ لأنني لم أسمع هذه الوصية: «أقفز قفزاً» ولو أني سمعتها وعملت بها، أو لو أنه أجبرني عليها، لتغيرت حياتي ولما فشلت في إعداد هذا الحديث، ولكنني في دنياي وفي ديني خيراً مما أنا عليه اليوم.

وأنا - إلى الآن - كلما أردت أن أقوم في الصباح أحسّ هذه الكلمة، كلمة أبي تُدويّ في أذني: «أقفز قفزاً قم إلى الصلاة؛ فالصلاة خير من النوم». ثم أسمع صوت الشيطان يقول لي: «نم دقيقة أخرى، فالوقت فسيح، والفرش دافئ والجو بارد».

ولا أزال بين داعي الواجب وداعي اللذة، أفكر في ثواب الصلاة فأتحفز للقيام، وأتصوّر لذة المنام، وبرد الماء فأسترخي وأتقلب من جنب إلى جنب، ولا تزال نفسي بينهما كنوّاس الساعة «الرقاص»، بين «قم، نم، قم، نم، قم، نم، قم، نم» حتى تدركني رحمة الله فأقفز، أو تطلع الشمس وتفتت الصلاة، وأقوم وقد مضى الوقت ودنا العمل، فأكل طعامي لقمة بالطول، ولقمة بالعرض، ولقمة تعترض في صدري فأغصّ بها، وألبس جورباً على الوجه، وجورباً على القفا، وأعقد العقدة مائلة، وأزرّر زرّ القميص الأول في العروة الثانية، وأنسى - من عجلتي - الساعة أو النظارات، وأهرول في

الطريق؛ فأسيء هضمي، وأتعب معدتي، وأضحك الناس عليّ، وكل ذلك لأنني أطعت الشيطان فلم أقفز قفزاً إلى صلاة الصبح»^(١).

فما أعظم بركات الصلاة، وهنيئاً للمسارعين.



(١) مع الناس (ص ٥٩).

عبادة يسيرة تعدل ثواب الحج

أخذ ذلك الرجل الذي لم يكتب له الحج، يتأمل في فضل الحج؛ فإذا هو يقف على فضل عظيم للحاج ذكره النبي ﷺ في قوله: «من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١)، فأصبح محزون الصدر، مكروب النفس أنه لم يحج هذا العام حتى ينال هذا الفضل العظيم. وأخذ يتساءل: هل من عبادة إذا فعلها المسلم رجع من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه.

فليهنأ هذا الرجل بأن هناك عبادةً غير الحج من فعلها فإنه يرجع من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه.

يحدث بهذه العبادة الصحابي الجليل عمرو بن عبسة رضي الله عنه ولكون هذه العبادة يسيرة، وأجرها عظيماً تعجب الصحابي الجليل أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه من رواية عمرو بن عبسة، فطلب من عمرو أن يتأنى ويتأكد من روايته للحديث؛ فما هذا العمل اليسير الفعل، العظيم الفضل، الكبير الأجر؟ وبم أجاب عمرو بن عبسة أبا أمامة الباهلي لما تعجب من روايته؟ إليكم ذلك كله:

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

أخرج مسلم^(١) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الوضوء؟ فقال النبي ﷺ: «ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتشر إلا خرَّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلّى فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو له أهل، وفرّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه».

فحدّث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ، فقال له أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول، في مقام واحدٍ يعطى هذا الرجل؟!!

فقال عمرو: يا أبا أمامة، لقد كبرت سني، ورقّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله ولا على رسول الله، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً - حتى عد سبع مرات^(٢) - ما حدّثت به أبداً، ولكني سمعته أكثر من ذلك.

(١) صحيح مسلم (٨٣٢).

(٢) ورد في رواية في إسناده ضعف: «لو لم أسمع من رسول الله ﷺ مرة أو مرتين أو عشرًا أو عشرين ما حدّثت به» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٠٢٦).

الله أكبر ما أعظم فضل الله، وما أوسع رحمته! تتوضأ وضوءاً كاملاً تسبغ به أعضائك، ثم تصلي بعده صلاة تُقبل فيها على ربك، وتفرغ له فيها قلبك، ولا تحدّث فيها نفسك، فترجع من ذنوبك كهيئتك يوم ولدتك أمك؛ فهل من مُستَبَقٍ لتطبيق هذا العبادة؟ وهل من مسارعٍ لحيازة هذا الفضل؟

إن من فضائل هذا العمل ما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلّي ركعتين مقبل^(١) عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة»^(٢).

أحسن وضوءك، ثم صلّ ركعتين خاشعاً فيهما تجب لك الجنة بإذن الله.

لقد سأل الرسول ﷺ بلال بن رباح رضي الله عنه فقال له: «يا بلال، حدّثني بأرجى عملٍ عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفَّ نعليك بين يدي في الجنة» فماذا قال بلال؟

هل ذكر صبره على العذاب الشديد في مكة من أجل إسلامه؟ وكان توضع عليه الصخرة في رمل مكة الشديد الحر، فما يرجع، ولا يزيد على قوله: أحدٌ أحدٌ؟!

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٣/٢١): «هكذا في الأصول [مقبِلٌ] أي: وهو مقبلٌ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤).

أم ترون بلالاً رضي الله عنه ذكر شهوده بدرأ؟ وهي الغزوة العظيمة في الإسلام؟!

أم ترونه افتخر بأنه مؤذن الإسلام الأول؟

كلا لم يذكر شيئاً من ذلك، وإنما قال: «ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهارٍ إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»^(١).

طهور بلال فصلاته كانتا سبباً في سماع النبي صلى الله عليه وسلم دفن نعليه في الجنة.

فلنحرص على القيام بهذا العمل اليسير؛ لعلنا نفوز بهذا الأجر الكبير.



(١) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨).

بِرُّ الوالدين كفارة الكبائر

امراً من دومة الجندل، عملت موبقة كبرى، إذ دخلت في شيء من أمر السحر، ثم استيقظ إيمانها، وإذا بلسعات الندم تُرهِق فؤادها، فأرادت التوبة، فلم تدرِ ما تصنع، فلم تجد بُدّاً إلا أن تقصد سيد الخلق محمداً ﷺ، فعنده ستجد حلاًّ لأزمته، وكشفاً لغمّتها؛ فقطعت القفار، وعبرت تلك المساحات الكبار، حتى دلفت إلى المدينة، وإذا بها تفجأ بأن الرسول ﷺ قد مات، فسحّ الدمع من جفنها مدراراً، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «رأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفئها، حتى إني لأرحمها، وهي تقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت».

ثم أخذت تحدّث عائشة بهذا الذنب الذي أقضّ مضجعها، وذكرت أمر السحر، تقول عائشة: «فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حادثة وفاة رسول الله ﷺ وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها!

وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلم إلا أنهم قالوا: لو كان أبواك حيّين، أو أحدهما لكانا يكفيانك».

أخرج هذا الأثر الحاكم^(١)، وقال: «الغرض في إخراجِه في هذا الموضع إجماعُ الصحابة حدثانَ وفاة رسول الله ﷺ أن الأبوين يكفيانها».

وهذا يدل على عظيم ثواب بر الوالدين، وجزالة جزائه.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني أصبت ذنباً عظيماً فهل لي توبة؟ قال: هل لك من أم؟ قال: لا، قال: هل لك من خالة؟ قال: نعم، قال: فبرها»^(٢).

والحديث ضعيف^(٣)، ولكن تعضده القصة السابقة، ويعضده ما رواه زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رجلاً أتى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: إني خطبت امرأة، فأبت أن تنكحني، وخطبتها غيري فأحبَّت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟

(١) المستدرک (٨/١٣٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح»، وقال ابن كثير في تفسيره (١/٣٦١): «إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها»، وقال المعلمي - آثار المعلمي (٢/٣٧٣) -: «أما السند فلا كلام فيه، وإنما الشأن في هذه المرأة الدُّومِيَّة، ومَن تأمل القصة.. وسكوت الصحابة عن إنكارها علم أنه ليس من الإنصاف تكذيبها».

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٢٤)، والترمذي (١٩٠٤).

(٣) لا يصح إلا مراسلاً كما ذكر ابن المديني، والترمذي، والدارقطني، ينظر: جامع العلوم والحكم (١/٤٣٥).

فأجابه ابن عباس جواباً يستحق التأمل والاستفهام؛ إذ قال له: «أملك حياة؟» قال: لا. قال: «تب إلى الله وَجَّكَ وتقرَّب إليه ما استطعت»^(١).

فاستبهم على عطاء بن يسار سبب سؤال ابن عباس عن أمه، فبادر ابن عباس قائلاً: «لَمْ سألته عن حياة أمه؟» فقال ابن عباس: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله وَجَّكَ من بر الوالدة».

فهذه النصوص تواطأت على أن بِرَّ الوالدين يكفر الكبائر^(٢)؛ وما ذلك إلا لعظم هذا العمل، وفضل هذه العبادة.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥) وإسناده صحيح.

(٢) فإن قيل: وهل تكفر الكبائر بالأعمال الصالحة؟ فيقال: إن هذه المسألة تكلم فيها أهل العلم، ولخصها ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٢٩/٢) فقال: «إن كان مرادهم أن من أتى بفرائض الإسلام وهو مصرٌّ على الكبائر تغفر له الكبائر قطعاً، فهذا باطل قطعاً، يعلم بالضرورة من الدين بطلانه، وإن أراد هذا القائل أن من ترك الإصرار على الكبائر، وحافظ على الفرائض من غير توبة ولا ندم على ما سلف منه، كفرت ذنوبه كلها بذلك... فهذا القول يمكن أن يقال في الجملة».

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الحسنات التي قوي فيها الإخلاص والصدق أنه قد يكفر بها، فقال - كما في مختصر الفتاوى المصرية (ص ٢٦١) -: «لا يقال في كل بغي سقت كلباً غفر لها؛ لأن هذه البغي قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغي، وزاد عليه ما أوجب المغفرة، =

ولذا قال التابعي الجليل مكحول: «بر الوالدين كفارة الكبائر»^(١).

ومثله جاء عن الإمام أحمد^(٢).

فمن وقع في الذنوب، وانغمس في الخطايا، وأراد التوبة، فليلزم قدم والديه فثُمَّ مغفرة الذنوب، وثُمَّ تحصيل المطلوب.

إنهما الوالدان، وما أدراك ما الوالدان، اللذان قاما عليك مُنذ اللحظة الأولى لك في الحياة، فأحسننا إليك، واختصّاك بمعروفهما، وآثراك ببرهما، يمرضان لمرضك، ويحزنان لحزنك، ويُسرّان لفرحك، ويسعيان في حاجتك، ويصبران على لأوائك، ويحتملان سوء طباعك، ويكدحان لأجلك حتى شَبَّتَ عن الطوق، واشتد منك العُود!

والبر بهما عمل عظيم تنزّل فيه الرحمات، وتُكشف به الكُربات، وهو أمانة الصلاح، ومفتاح النجاح، وزينة الحياة، ومعقد النجاة، بالبر يصلح أبنائك، ويجاب دعاؤك، البار بوالديه يعيش حياة السعداء، ويأمن من ميتة البُؤساء.

يقول الرسول ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن

= والمغفرة تحصل بما يحصل في القلب من الإيمان الذي يعلم الله وحده مقداره وصفته».

(١) حلية الأولياء (١٨٣/٥).

(٢) الآداب الشرعية (٤٣٦/١).

شئت، فأضع ذلك الباب، أو احفظه»^(١).

استصغار نفسك عند والديك، وذُلُّك بين أيديهما هو الشرف العظيم، والرفعة التي لا تُسَامى.

قلِّبْ طرفك في الناس، لن تجد شخصاً ناجحاً في الحياة إلا وله من بر الوالدين نصيب.

ولربما أردت سفرراً، أو عقدت موعداً، فرأى والداك خلاف ما تريد، فعين التوفيق أن تخضع لقلولهما فثمَّ البركة المدرار، والخير الهطال.

يقول محمد بن بشار - وهو شيخ أصحاب الكتب الستة كلهم -: «أردت الرحلة لطلب الحديث، فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي»^(٢).

ويقول الحسن بن عبد الوهاب الوراق: «كنت قد اعتزمت على السفر للتجارة، فمنعني والدي، فأطعته، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك فأكثر، فله الحمد»^(٣).

وحين يكبر الوالدان، وتَهْنُ منهما القوى، فإنهما يحتاجان مزيداً من العناية والتلطف؛ ولذا خصهما الله بمزيد من البر، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥١١)، والترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩)، وصححه الترمذي.

(٢) تاريخ بغداد (٤٥٨/٢).

(٣) المرجع السابق (٢٨٣/١٢).

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]، فقد يستغني الوالد عن أولاده حال شبابه، بخلاف ما إذا كبرت به السن، فوهن عظمه، وثقل سمعه، وكلَّ بصره، وضعفت صحته، وصارت أخلاقه تضيق، وبدأت ذاكرته تتضاءل، فإنه يحتاج إلى رعاية أكبر، وتعامل ألطف، وعلى الأولاد أن يقبلوا على خدمة الوالدين في هذه المرحلة بأنفس رضية، ووجوه متهللة، وأن يراعوا كبرهما، ويتحملوا جفوتهما، وكثرة شكواهما، فثمَّ التوفيق والنجاح، والفوز العظيم والفلاح.

وإن من دقيق البر بهما عند الكبر أن يستمع الابن لحديثهما مستمتعاً مسروراً، حتى ولو كان الحديث معاداً مكروراً؛ لأنه مع السنين تضعف ذاكرة الوالدين؛ فربما أعاد الحديث في المجلس المرة والمرة.

وإن من البر أن يعلم الابن أن والده يأنس بالحديث عن حادثة معينة؛ فيسأله عنها، حتى يتحدث بها.

وإن من البر أن يعلم أن والده يأنس ببعض الناس؛ فيكون هذا الابن سبباً في اجتماعهم بوالده.

وإن من البر أن يشرك الأولاد والدهم في الحديث إذا جلسوا عنده؛ فإنه ربما ثقل سمعه؛ فيتركه الأولاد في المجلس معزولاً يناجي نفسه!

وإن من البر المؤكد لهما حال الكبر إشباع مشاعرهما؛

بإعلان شكرهما، والاعتراف بمنتَّهما، والتنويه بنعمتهما، والإشادة بفضلهما.

وإن من نعمة الله على الابن أن يَمُنَّ عليه بالقرب من والديه؛ خاصة عند الكبر؛ يواسيهما ويُسلِّيهما، ويتملَّى بالنظر إليهما، فلا تفسدن هذا الأمر بقولك: أين إختوتي؟ فأنت بقربك منهما إنما تفرع باب الجنة، فَلْيَهْنِكْ لك الأمر، ولا تتضجَّر فيفوتك الأجر.

وإن من الخذلان ألا يُحسن الابن الجلوس عندهما؛ بل إذا جاء كان على عُجالة، وإن جلس أخذ يقلِّب جوَّاله؛ ثم ينصرف عنهما مسرعاً قاصداً أصحابه أو عياله؛ إن هذا لهو الحرمان المبين.

وإن برَّ الوالدين ليس مقصوراً على تنفيذ أوامرهما فقط؛ بل برَّهما يكون في إدخال السرور عليهما بأي طريق؛ فحُسْنُ علاقتك بإخوتك وأخواتك من البر، وتميُّزك في عملك من البر، وتفوُّقك في دراستك من البر، وحُسْنُ سمعتك في عملك وعند الناس من البر.

ولقد خلق الله الآباء مختلفي الطباع، فبعضهم ليِّن الجانب، وبعضهم فظُّ الأخلاق، وبعضهم بَسَّام أَغْر، وبعضهم عابس أشِر، والابن الموفق من يحسن التعامل مع أبيه حسب طبعه، ولا يمنعه سوء طبع أبيه من بحثه عن أسباب سروره ومراضيه.

وإن الدعاء للوالدين من أعظم البر الذي يقدم لهما؛ كيف وقد أمر الله به، فقال ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

علّق ابن عاشور على الآية قائلاً: «في الآية إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله أذن فيه»^(١).

والدعاء أعظم عمل تقدمه لوالدك الميت؛ فهو أفضل من الصدقة عنه، وحج التطوع؛ لقول النبي ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث»: وذكر منها: «أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

ويقول الرسول ﷺ: «إن الله ﷻ ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»^(٣).

فلا ينبغي للابن أن يَمَلَّ من الدعاء والاستغفار لهما، ولا أن يسأم.

وإن هنا أمراً يحسن التنبيه عليه، وهو أن الوالدين من جملة البشر يعتريهما ما يعتري البشر من الخطأ والجهل والظلم، ولكن لا ينبغي للولد إذا جهلا عليه أن ينهر، أو

(١) التحرير والتنوير (٧٢/١٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦١٠) وحسنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣٧٠/١).

يهجر، أو يخاصم، أو يفجر؛ بل يصفح، ويحسن، ويسامح، ويضاحك؛ وخروجك مغلوباً معهما هو غاية الانتصار؛ وفي ذلك يقول يزيد بن أبي حبيب: «إيجاب الحجة على الوالدين عقوق»^(١).

وقد فسر ابن الجوزي كلام يزيد، فقال: «يعني: الانتصار عليهما في الكلام»^(٢).

وإذا كان الله - سبحانه - أمر بالإحسان إلى المسيء فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] فأول من يطلب معه الإحسان - إذا أساء - الوالدان.

فَاللَّهُمَّ ارحم والدينا كما ربونا صغارا^(٣).



(١) بر الوالدين، لابن الجوزي (ص ٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) خطبت بهذه المقالة في جامع الحسين بمحافظة الزلفي بتاريخ ١٤٣٩/٦/٧هـ، وقد شرفتُ بحضور والدتي لهذه الخطبة، وكان قد ابتدأها وجع؛ توفيت على إثره في نفس السنة بتاريخ ١٤٣٩/١٢/١٥هـ وكانت آخر خطبة حضرتها عندي؛ فاللهم ارحمها، وضاعف مشوبتها، واجعلها هائلة منعمة مسرورة.

أسعد زوج عرفته الدنيا

الحديث هنا عن خير رجل عرفته البشرية، وأسعد رجل في الحياة الزوجية، وأحذق الناس تعاملًا مع المشاكل الأسرية، ومن يكون هذا الرجل إن لم يكن نبينا محمداً ﷺ؛ فلنتبين أخباره مع أحب نسائه إليه عائشة رضي الله عنها؛ فهذا شيء من سيرته معها يُسر به خاطر، ويهتدي به القلقُ الحائر:

تحدث عائشة رضي الله عنها فتقول: «إن أول شيء يبدأ به النبي ﷺ إذا دخل بيته هو السواك»^(١)؛ وقد ذكر أهل العلم الحكمة من ذلك بأن يستقبل أهله بريح طيبة.

وبعض الأزواج لا يبالي برائحته، وهذا أمر ينفر منه أهله، وربما شتت شمله؛ فكما يطلب الزوج من زوجته أن تكون بأحسن الروائح، فليكن لها كذلك؛ فإن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ولم يكن النبي ﷺ مستنكفاً عن خدمة نفسه في بيته، وهو سيد ولد آدم؛ فقد سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يعمل في بيته؟ فقالت: «كان يخيظ ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣).

يعمل الرجال في بيوتهم»^(١).

إذن فليس عيباً أن يعمل الرجل ببعض أعمال المنزل؛ إذ هو فعل الأكابر، وهو اقتداء بسيد الأوائل والأواخر.

ومرة حدثت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم بخبر طويل عن إحدى عشرة زوجة اجتمعن وتعهدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً؛ فلم يقطع كلامها، ولم يستثقل مقامها؛ بل ظل مستمعاً منصتاً، لم يمنعه من ذلك كثرة أشغاله، وعظم أعبائه^(٢).

إن إتقان فن الاستماع للزوجة سبيل إلى مودتها، ودليل على حسن رعايتها.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يجد غضاضة في أن يعلن حبه لزوجته؛ فقد سأله عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: «أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ فقال: عائشة»^(٣).

وكان صلى الله عليه وسلم يترجم الحب واقعاً عملياً؛ فكانت عائشة تشرب الشراب وهي حائض، ثم تناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيها فيشرب، وتتعرق العرق^(٤) - وهي حائض - ثم

(١) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣).

(٢) وهو الحديث المعروف بـ: «حديث أم زرع» وقد أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٤) العرق هو: العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم. ينظر: النهاية، لابن الأثير (٢٢٠/٣).

تناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيها فيأكل^(١).
ولم يكن حبُّ النبي ﷺ لها مانعاً من الإنكار عليها إذا
أخطأت؛ فقد قالت عائشة رضي الله عنها - مرة -: حسبك من صفية كذا
وكذا - تعني قصيرة -، فقال النبي ﷺ: «لقد قلت كلمة لو
مُزِجَت بماء البحر لمزجته»^(٢).

وكان ﷺ يتكئ في حجرها وهي حائض، ثم يقرأ
القرآن^(٣).

وكانت تقول: «كان رسول الله ﷺ يأمرني فأتزر،
فيباشرني وأنا حائض»^(٤).

فأين هذا ممن إذا حاضت زوجته فارقتها في المضجع
وتركها!

وكان ﷺ يناديها فيرخم اسمها، رحمة بها ومحبة،
فيقول: «يا عائش»^(٥).

وبعض الأزواج لا ينادي زوجته باسمها طيلة زواجه بها؛
بل بعضهم ربما سمى زوجته بهاتفه بأسماء منكراً؛ وهذا بذاء
وجفاء، فأين التذم والوفاء؟
وكانت تضعُ خدَّها على خدِّه، لتُبَصِّرَ لعب الحبشة، تقول

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٣) وصححه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٧)، ومسلم (٣٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٠)، ومسلم (٢٩٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٦٨)، ومسلم (٢٤٤٧).

عائشة رضي الله عنها: حتى إذا مللتُ، قال: «حسبك؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي»^(١)؛ فصلوات ربي وسلامه عليه - لم يستطل لبثها حتى هي التي ملّت من نفسها.

وكان يراعي مشاعرها؛ فيفطن لرضاها وغضبها، يقول لها: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي» فتقول: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت: لا ورب إبراهيم» فتقول: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك^(٢).

بهذا اللطف يخاطبها النبي صلى الله عليه وسلم وبعضهم قد يعد هذا قدحاً في الشخصية، وخفي عليه أنه من الأخلاق النبوية.

وكان حبه صلى الله عليه وسلم لعائشة متماسكاً؛ لا يزيله لحظة غضب عارضة، ولا هفوة زوجية عابرة، فمرة استأذن أبو بكر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع عائشة، وهي رافعة صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابنة أم رومان، وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فحال النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينها، قال: فلما خرج أبو بكر جعل النبي صلى الله عليه وسلم يترضاها ويقول: «ألا ترين أنني قد حلت بين الرجل وبينك»، قال: ثم جاء أبو بكر، فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٧)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٩٩)، وأحمد (١٨٣٩٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٢/٩): «رجاله رجال الصحيح».

وبعض الأزواج لأدنى هفوة، يفجر في الخصومة، ويهجر
زوجه الأيام غير المعلومة!

ولما وقعت حادثة الإفك، وانتشرت قالة السوء في عائشة
لم يتغير رأيه ﷺ فيها؛ بل قام على المنبر، وقال: «والله ما
علمت على أهلي إلا خيراً»^(١)، فأين هذا ممن يسيء التعامل
مع أهله بمجرد ظنون كاذبة، وأخبار غير ثابتة؟

ومرة أرسلت إحدى نساءه قصعة فيها طعام في بيت
عائشة، فضربت عائشة القصعة فانكسرت؛ فجعل الرسول ﷺ
يجمعها، ولم يعاتبها سوى أن قال: «غارت أمكم»، ثم دفع
القصعة الصحيحة إلى التي كُسرت قصعتها، وترك المكسورة
لعائشة^(٢).

فليس من الحكمة أن يؤاخذ الرجل زوجاته في الأخطاء
المعتادة.

والخلاصة أن من أراد السعادة الزوجية فليلزم هذه السيرة
النبوية، ففيها السعادة والشفاء، والعيش الآمن والزكاء.



(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٥).

الزوجة المستشارة

من نعمة الله على عبده أن يَمُنَّ عليه بزوجة ذات رأيٍ سديد، وقول صائب، ونظر ثاقب؛ فتكون ملاذاً عند الشدائد، ودليل خير إلى وجوه النُجَح والمحامد، وهذا من نعيم الدنيا وزينتها.

وفي طليعة النساء اللاتي حُمد رأيهنَّ مع أزواجهن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها لما أتاها الرسول ﷺ بعد لقاء جبريل عليه السلام ترجف بواده، فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، ثم قال لخديجة: «أي خديجة، ما لي» وأخبرها الخبر، قال: «لقد خشيت على نفسي»، قالت له خديجة: كلا أبشر، فوالله، لا يخزيك الله أبداً، والله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، فقالت له: أي عم، اسمع من ابن أخيك، قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ﷺ يا ليتني فيها جذعاً^(١)، يا ليتني أكون حياً حين

(١) في مجيئها منصوبة يقول الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٦/١): =

يخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرَجِيْ هُمْ؟» قال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١).

فلقد وفقت خديجة رضيها الله عنها في تهدئة روع الرسول ﷺ بهذه الكلمات العظيمة؛ وهذا التصرف الحكيم؛ وتأمل كيف أن النبي ﷺ قصد خديجة، ولم يذهب لعمه أبي طالب، مع اهتمامه به، وحَدَبه عليه؛ فهذا يؤكد رجحان عقل خديجة، وحُسن نظرها، وصدق نصيحتها، وسداد رأيها؛ ولذا يقول الحافظ ابن حجر: «في هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحَب له أن يُطلع عليه من يثق بنصيحته، وصحة رأيه»^(٢).

ومن النساء اللاتي حُمد رأيهن أم المؤمنين أم سلمة رضيها الله عنها في رأيها الذي بذلته للنبي ﷺ يوم الحُدَيْبِيَّة؛ فإنه ﷺ لما فرغ من صلح الحُدَيْبِيَّة، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فما قام رجل منهم، وكانوا لا يرجون الانصراف دون أن يعتمروا، فكرر رسول الله ﷺ أمره ثلاثاً، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فما كان

= «بالنصب على أنه خبر كان المقدرة، وقيل التقدير: يا ليتني جعلتُ فيها جذعاً، وقيل: النصب على الحال...» اهـ بتصريف.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (٢٥٢).

(٢) فتح الباري (٥٢٢/٨).

من أمنا ﷺ وهي المرأة ذات العقل الراجح، والرأي الجزل الصائب إلا أن قالت: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً^(١).

فَلِلَّهِ دُرٌّ أُم سَلَمَةَ، كَيْفَ كَانَ رَأْيُهَا سَبَباً مَبَارَكاً لِإِنْهَاءِ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ.

قال الخطابي: «وفي قبول رسول الله ﷺ إشارة أم سلمة عليه بأن يبدأ بنحر هديه، وحلق رأسه: دليل على جواز مشاوره النساء، وقبول قولهن إذا كنَّ مصيبات فيما يشرن به»^(٢).

ومن هؤلاء النساء أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق ﷺ ورأيها المبارك لزوجها طلحة بن عبيد الله ﷺ وذلك أنه أتاه مالٌ من حضرموت، قدره سبع مائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته أم كلثوم بنت الصديق: ما لك؟ قال: تفكرت منذ الليلة، فقلت: ما ظنُّ رجلٍ برَّبِّه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك؟ فإذا أصبحت، فادع بجفان وقصاع، فقسِّمه، فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

(٢) معالم السنن (٢/٣٣٣).

موفق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار^(١).

فانظر إلى إعجاب طلحة رضي الله عنه برأي زوجته، وثنائه عليها بأنها موفقة بنت موفق!

ومن هؤلاء النساء زوجة محمد بن عمر الواقدي، صاحب المغازي، فقد أشارت على زوجها برأي جزل، فأخذ به فأفلح وأنجح؛ في قصة من أعجب قصص الإيثار؛ وذلك أن الواقدي أصيب بضائقة مالية، وقد حضر العيد، وليس عنده من النفقة شيء، فماذا فعل؟

يحدث الواقدي فيقول: «فمضيت إلى صديق لي من التجار، فعرفته حاجتي إلى القرض، فأخرج إليّ كيساً مختوماً فيه ألف ومائتا درهم، فأخذه وانصرفت إلى منزلي، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي، فشكى إليّ تأخر غلّته، وحاجته إلى القرض.

فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها، فقالت: على أي شيء عزمت؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس، قالت: ما صنعت شيئاً أتيت رجلاً سوقه^(٢)، فأعطاك ألفاً ومئتي درهم، وجاءك رجل

(١) تاريخ بغداد (١/٣٠).

(٢) السوق من الناس: من لم يكن ذا سلطان، وهم بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك؛ سمّوا سوقاً لأن الملوك يسوقونهم فيساقون لهم. ينظر: اللسان (١٠/١٧٠).

له من رسول الله ﷺ رحمٌ مائة^(١)، تعطيه نصف ما أعطاك السُّوقَةُ؟! ما هذا شيئاً، أعطه الكيس كله.

يقول الواقدي: فأخرجت الكيس كله فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي وكان له صديقاً فسأله القرض، فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه، وانصرف إليّ فخبّرني بالأمر.

يقول الواقدي: «فركبت إلى يحيى بن خالد البرمكي، فأخبرته بخبر الكيس، فقال: يا غلام هات تلك الدنانير فجاءه بعشرة آلاف دينار، فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفين لصديقك، وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك؛ فإنها أكرمكم»^(٢).

فتأمل في هذه القصة العجيبة، وما فيها من الإيثار النادر، والعوض العظيم السريع، والذي يعيننا هنا هو رأي هذه المرأة السخية السمحة، كيف أشارت على زوجها أن ينفق الدراهم كلها مع عوزهم الشديد، وحاجتهم لهذه الدراهم؟! فكانت بحسن نيتها، وصدق رأيها ونصيحتها أوفر هؤلاء مالا، وأكثرهم عوضاً.

فهذه الحكايات ونحوها تبين بأن المرأة سديدة الرأي تكون بركة على زوجها ورحمة، وصدق من قال: «ما أعان

(١) أي: قرابة قريبة. ينظر: اللسان (٦/٢١٨).

(٢) تاريخ بغداد (٣/١٩).

على نظم مروعات الرجال كالنساء الصوالح»^(١)، ومن أسباب نيل ذلك أن يدعو المسلم ربه بأن يبارك له في زوجه؛ وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يكثر أن يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا»^(٢)، ومن بركة الزوجة بركة رأيها.

كما أن في استشارة الرسول ﷺ لزوجاته، واعتبار رأيهن، والحكايات الأخرى التي تبين نُضج رأي المرأة رداً على أولئك القوم الذين يحتقرون رأي المرأة، ولا يعتبرونه شيئاً؛ فلا يستشيرون نساءهم في كبير ولا صغير؛ بل يعدون استشارتهن ضعفاً ومهانة؛ وهذه نزعة جاهلية، ولوثة كبر خفية. وربما استدل بعض هؤلاء بأحاديث باطلة، مثل حديث: «شاوروهن وخالفوهن»^(٣)، وحديث: «طاعة المرأة ندامة»^(٤).

واستشارة الرجل زوجته لا ينقص رجولته؛ ولا يخذش قوامته؛ بل يقوي أواصر المودة بينه وبين زوجته، وربما ظفر منها برأي يكون سبباً لانجلاء همه، وانفراج كربه، وانشراح صدره.

(١) تاريخ دمشق (٢٢/١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٣٠)، وروي مرفوعاً، ولا يصح كما أشار إليه الدارقطني في العلل (٨٥/٥).

(٣) قال السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٢٦٧): «باطل لا أصل له».

(٤) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٣٥): «موضوع».

وعافني فيمن عافيت

العافية نعمة عظيمة، ومِنَّة من الله جسيمة، ذكر النبي ﷺ أنه لم يؤت أحدٌ بعد اليقين أفضل منها؛ وذلك فيما رواه أوسط البجلي قال: قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنة، فألفت أبا بكر يخطب الناس قال: قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول، فحنقته العبرة مراراً، ثم قال: «أيها الناس سلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد يقينٍ مثل معافاة»^(١).

وسأل العباس بن عبد المطلب ﷺ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله علّمني شيئاً أسأله الله ﷻ، قال: «سل الله العافية» فمكثت أياماً، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علّمني شيئاً أسأله الله، فقال لي: «يا عباس، يا عمّ رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة»^(٢).

وقد علّق على هذا الحديث الشوكاني فقال: «أمره ﷺ للعباس بالدعاء بالعافية، بعد تكرير العباس سؤاله بأن يعلمه شيئاً يسأل الله به، دليلٌ جليٌّ بأن الدعاء بالعافية لا يساويه

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٦٥٣)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وحسنه العراقي في تخریج أحاديث الإحياء (٧٩٧/٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٤) وصححه.

شيء من الأدعية، ولا يقوم مقامه شيء من الكلام، الذي يدعى به ذو الجلال والإكرام»^(١).

فمن رُزق العافية، فقد أوتي خيراً عظيماً، وهُدي صراطاً مستقيماً.

إذا عافاك الله في دينك سلمت من فتن الشبهات، ونجوت من فتن الشهوات، وصرت معتزاً بالحق ولو قلّ أنصاره، ولم تتأثر بالباطل ولو اشتدُّ أواره؛ فإذا ابتلي العبد في دينه، زُيِّن له سوء عمله، فصار الباطل عنده حقاً، وصار الدين عنده قيّداً وغِلاً، فضلَّ سعيه في الحياة الدنيا، وهو يحسب أنه يُحسن صنْعاً.

وإذا عافاك الله في دنيائك، يسَّر لك شؤون حياتك، وستر عوراتك، وأَمَّن روعاتك، وسلَّمك من فجاءة النقمة والحوادث، ومن شر الفواجع والكوارث؛ فإن ابتليت في دنيائك صرت كثير النكبات، دائم الحسرات.

وإذا وضع الله العافية في مالك كفى الحاجات، واستعصى على الآفات، وإذا نُزعت منه العافية كان عليك وبالاً، تعاني فيه نصباً، وتلاقى فيه تعباً، ولا تزيدك كثرته إلا قلقاً.

وإذا وضع الله العافية في جسمك، عشت في سلام، ووقيت الآفات والأسقام، واستطبت تناول الطعام.

وإذا عوفيت مع الناس، سلمت من أذاهم، ونلت مودتهم ورضاهم، وإلا كنت بهم مبتلى، فعشت معهم في شقاق، ولقيت منهم سيء الأخلاق.

وإذا كانت العافية في أهلك وولدك، صاروا لك بهجة وسروراً، وإذا ابتليت بهم لقيت فيهم الشرور، ودعوت عليهم بالشبور.

وإذا عوفيت بعد الموت أمنت من الفتان في قبرك، وأتيت آمناً يوم القيامة.

فما أجمل العافية وما أكثر بركاتهما، وما أحلى ثمراتها، ومع ذلك يغفل كثير منا عن أسباب حصولها، وطرق بلوغها.

وإن خير سبيل لاستجلابها هو تمثّل الهدي النبوي في سؤال الله العافية؛ إذ سؤال الله العافية حاضر كثيراً في الأدعية النبوية؛ فهو من أشهر الأدعية، وأكثرها وروداً في السنة؛ وهذا بعض مما صحّ عن النبي ﷺ في ذلك:

فقد أمر ﷺ من أوى إلى منامه أن يقول: «اللَّهُمَّ خلقت نفسي وأنت توفّاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللَّهُمَّ إني أسألك العافية»^(١).

ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي، وهي: اللَّهُمَّ إني أسألك

العافية في الدنيا والآخرة، اللَّهُمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي»^(١).

وتقول عائشة رضي الله عنها: «فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعتُ يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللَّهُمَّ أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في آخر وتره: «اللَّهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣).

وسأل - مرة، شَكْلُ بن حميد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علمني دعاء أنتفع به. قال: «قل: اللَّهُمَّ عافني من شرِّ سمعي وبصري ولساني وقلبي وشر مني»^(٤).

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله كيف أقول حين أسأل

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٢٥)، وابن ماجه (٣٨٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والنسائي (١٧٤٧)، وابن ماجه (١١٧٩) وحسنه الترمذي.

(٤) أخرجه النسائي (٥٤٨٤).

ربي؟ قال: «قل اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني»، ثم قال النبي ﷺ: «فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك»^(١).

وكان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني»^(٢).

وقد علم الحسن بن علي رضي الله عنه أن يقول في دعائه: «اللهم عافني فيمن عافيت»^(٣).

وكان ﷺ يستعيز بالله من تحوُّل العافية^(٤).

وكان النبي ﷺ إذا صَلَّى على جنازة دعا للميت قائلاً: «اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه»^(٥).

وإذا زار المقبرة قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»^(٦).

وبعد، فإن دعاءً كان نبينا ﷺ به حفيّاً، وكان محافظاً

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٧/٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٧/٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن ماجه (١١٧٨) وحسنه الترمذي.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).

(٥) أخرجه مسلم (٩٦٣).

(٦) أخرجه مسلم (٩٧٥).

عليه عند منامه، وفي صباحه ومساءه، وفي صلاته، وفي عامة حياته لتحقيق المسلم أن يجعله بين عينيه، وأن يحفظه، ويحافظ عليه، وأن يعلمه أهله وذويه؛ فيدرك بذلك سعادة الدنيا وفوز الآخرة.



السَّخَاءُ بِالْإِخَاءِ

السَّخَاءُ بِالْإِخَاءِ، هو شِيمَةُ الْإِخَاءِ، وَفِعْلَةُ الْفَضْلَاءِ، وَهُوَ أَمَارَةُ طَهَارَةِ وَزْكَاءٍ، وَسَخَاوَةِ نَفْسٍ وَصَفَاءِ.

وَمَعْنَى السَّخَاءِ فِي الدَّعَاءِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكَ الْمُسْلِمَ حَاضِرًا مَعَكَ فِي خَلَوَاتِكَ، فَتَوْثِرُهُ عَلَى نَفْسِكَ بِبَعْضِ دَعَوَاتِكَ، وَتَهْبِهِ حَظًّا مِنْ تَضَرُّعِكَ وَمَنَاجَاتِكَ، فَتَصْعَدَ بِاسْمِهِ فِي الْخَفَاءِ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَا لِلَّهِ مَا أَجْمَلَ هَذَا الْوَفَاءَ، وَمَا أَزْكَى هَذَا الْإِخَاءَ!

وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا فَضْلِ عَظِيمٍ، فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ ^(١) مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَدِمَ الشَّامَ، فَأَتَى أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ صَفْوَانُ زَوْجَ ابْنَتِهِ، فَلَمْ يَجِدْهُ، وَوَجَدَ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقَالَتْ لَهُ: أَتُرِيدُ الْحَجَّ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعِ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلِكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِ» قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَى السُّوقِ، فَلَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ يَرْوِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ دَعَاءَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٣).

مستجاب؛ وأن الملائكة تؤمن على الدعاء، وتقول: «ولك بمثل».

ولذا جاء عن بعض السلف أنه إذا أراد أن يدعو لنفسه، فإنه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب، ويحصل له مثلها^(١).

وكلما كان الدعاء للآخرين أعمّ وأشمل كان أزكى وأفضل، يقول ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول: فضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض، وذكر في ذلك حديثاً مرفوعاً عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ مرَّ به وهو يدعو فقال: «يا علي، عُمَّ؛ فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض»^(٢)^(٣)).

وقد اشتهر عن بعض الأكابر اهتمامهم بالدعاء لإخوانهم المؤمنين؛ فمن ذلك ما أخرجه البيهقي^(٤) عن الإمام الكبير عبد الله بن المبارك أنه كان إذا ختم القرآن، أكثرُ دعاءه للمؤمنين والمؤمنات.

فيا لله ما أطيب هذه النفس التي تؤثر الآخرين عليها! إنها نفس زكية، طاهرة تقية.

(١) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٧/٤٩).

(٢) منقطع أخرجه أبو داود في المراسيل (٨٠).

(٣) بدائع الفوائد (٢/١٧٤).

(٤) شعب الإيمان (٢٠٤٦).

ولما مرض الإمام أحمد مرض موته، دخل عليه الناس فوجاً فوجاً يزورونه، ودخل عليه رجلٌ، فجعل يدعو له، فجعل الإمام أحمد يقول له: «ولجميع المسلمين»^(١).

ألا تتعجبون من هذا الإمام!!

في آخر أيامه، وفي شدة مرضه، قد أشفى على الموت، ومع ذلك لم ينس إشراف المسلمين معه بالدعاء؛ وهكذا العظماء، حالهم سواء، في السراء والضراء، لا يعيشون لأنفسهم؛ وهذا من أسباب عظمتهم ورفعتهم وبركتهم.

وإن الدعاء للآخرين ليتأكد لمن فعل لك معروفاً، فقد قال النبي ﷺ قال: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(٢).

وأعظم الناس معروفاً علينا الرسول ﷺ؛ فلنكثر من الصلاة عليه ﷺ؛ فهذا من حقوقه علينا.

ثم الوالدان؛ فلهما حق على الأبناء بالدعاء^(٣).

والدعاء لولي أمر المسلمين له أهميته الكبرى، وثمرته العظمى؛ إذ بصلاحه صلاح العباد والبلاد، وقد نصت على هذا كتب العقائد^(٤).

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٥٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢).

(٣) سبق بيان الأدلة في ذلك في المقال السابق بعنوان: «بر الوالدين كفارة الكبائر».

(٤) ينظر: شرح السنة للبربهاري (ص ١١٤)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٩٢ - ٩٣)، والشرعية للآجري (١/ ٣٧١).

ويتأكد الدعاء لمن علّمك علماً، وقد كان الإمام أبو حنيفة يقول: «ما صلّيت صلاة إلا استغفرت لحَمَّاد بن أبي سليمان مع والدي»^(١)، وكان حمادُ شيخه.

ودعاء الإمام أحمد لشيخه الإمام الشافعي مشهور معلوم، ومنه قوله: «ما بُتُّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي، وأستغفر له»^(٢).

بل الرجل ذو المروءة يدعو لمن أحسن إليه، حتى ولو كان ظاهر حاله أنه غير حقيق بالدعاء، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يدعو كثيراً للصُّ بسبب كلمة طيبة قالها له، فما هذه الكلمة؟

يحكي الموقف عبد الله ابن الإمام أحمد، فيقول: «كنت كثيراً أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبه، من أبو الهيثم؟ قال: ما تعرفه؟ قلت: لا. قال: أبو الهيثم الحداد؛ اليوم الذي خرجت فيه للجلد بالسياط، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار، اللص الطرّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أنني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين»^(٣).

(١) تاريخ بغداد (١٥/٤٤٤).

(٢) المرجع السابق (٢/٩٠).

(٣) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٥٤١).

كما يتأكد الدعاء والاستغفار لمن وقع تقصير في حقهم من أقاربٍ وجيران، وأهلٍ وإخوان؛ فذلك كفارة لذلك التقصير، وقد أشار لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان، فعليه بالدعاء لهم والاستغفار»^(١).

وإن من علائم الأخوة الصادقة، دعاء المسلم لإخوانه؛ ومما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه في ذلك قوله: «إني لأدعو لثلاثين من إخواني وأنا ساجد؛ أسميهم بأسمائهم وأسماء آبائهم»^(٢).

وإن من زكاء طالب العلم أن يدعو لمن كان له نفع للإسلام والمسلمين، حتى ولو كان معاصراً له، حتى ولو كان أصغر منه، ومن أعجب ما ورد في ذلك ما جاء عن الإمام الكبير يحيى بن سعيد القطان أنه قال: «إني لأدعو الله وَعَلَيْكَ للشافعي في كل صلاة، أو في كل يوم؛ يعني: لما فتح الله وَعَلَيْكَ عليه من العلم، ووقفه للسداد فيه»^(٣).

ووجه العجب في هذا أن الشافعي أصغر من يحيى القطان بـ ٣٠ عاماً، وقد مات القطان، وعمر الشافعي ٤٨

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٣٢٦)، وفي الشعب (٨٦٤٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٧/٢٠٢).

عاماً، فالشافعي في سنّ طلابه وأولاده؛ ومع ذلك يدعو له؛ وليس دعاءً مألوفاً معتاداً؛ بل يدعو له في صلاته، وليست صلاةً واحدة؛ بل في كل صلاة؛ وسبب الدعاء: هو ما فتح الله عليه من العلم!

إنه سخاء النفوس الكبير!

وإن هناك نوعاً من الدعاء يتأكد بذله للمسلمين، وهو الاستغفار لعموم المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات^(١) تأسياً بالنبي ﷺ الذي أمره الله ﷻ بذلك، فقال له: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقد أخرج عبد الرزاق^(٢) عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أستغفر للمؤمنين والمؤمنات؟ قال: «نعم، قد أمر النبي ﷺ بذلك؛ فإن ذلك الواجب على الناس، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾».

وفي نصّ نفيس لابن القيم في ذلك يقول: «والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته، فكما يُحبُّ - أي: المسلم - أن يستغفر له أخوه المسلم، كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم،

(١) ورد في ذلك حديث: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»، عن عدد من الصحابة، ولا يصح عن أحد منهم.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٣١٢٢).

فِيصِيرُ هَجِيرَاهُ^(١): رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ
يَسْتَحِبُّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ... فَيَجْعَلُ لَهُ مِنْهُ
وَرْدًا لَا يُخْلُ بِهِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يَذْكُرُهُ، وَذَكَرَ فِيهِ فَضْلًا عَظِيمًا لَا أَحْفَظُهُ،
وَرَبِّمَا كَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَوْرَادِهِ الَّتِي لَا يُخْلُ بِهَا، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:
إِنَّ جَعْلَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ جَائِزٌ، فَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ أَنَّ إِخْوَانَهُ
مُصَابُونَ بِمِثْلِ مَا أُصِيبَ بِهِ، مُحْتَاجُونَ إِلَى مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ لَمْ
يَمْتَنِعْ مِنْ مُسَاعَدَتِهِمْ إِلَّا لِفَرْطِ جَهْلِهِ بِمَغْفِرَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَحَقِيقٌ
بِهَذَا أَنْ لَا يُسَاعَدَ؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ^(٢). اهـ كَلَامُهُ.

رَبِّ اغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِينَا، وَلِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ،
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.



(١) أَي: عَادَتُهُ وَشَأْنُهُ.

(٢) مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ (١/٢٩٨).

مبادرات الموفقين

مبادرة الفرص، صفة حميدة، وخصلة جميلة، يصطفي الله لها من شاء من عباده؛ من هدي إليها فقد نال من التوفيق بحظ وافر، والكتاب والسُّنة وكتب السير مترعة بمبادرات الموفقين.

وإن من دقيق المبادرات الموفقة أن تحسن قراءة احتياج الآخرين دون أن يتفوهوا بكلمة، فتبادرَ لهم بالخير دون أن ينادوك، وتقضي حاجاتهم دون أن يأمروك، وهذه لا يوفق لها إلا العظماء الأعيان، ولا يفطن لها إلا كبار الهمة، فخامُ الشأن، فليس كل أحد ينالها، وليس كل متبغ يطالها.

فتأمل في مبادرة موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين؛ كيف بادر في سقي الماء للمرأتين دون أن يطلبنا منه ذلك؟ ولم يتكل على الناس، مع أن الله وصفهم بأنهم أمة من الناس يسقون، ومع ذلك يسقون لأنفسهم دوماً ويذهبون، دون أن يلتفتوا لهاتين المرأتين، وموسى عليه السلام لأول مرة يرد الماء؛ ومع ذلك انتبه وفطن، وهكذا العظماء، لِمَاحون مبادرون، يهتبلون فرص الخير ولا يفوتون.

وتأمل - أيها القارئ الكريم - في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الجوع؛ إذ يقول: «لقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون

منه، فمر أبو بكر رضي الله عنه فسأله عن آية من كتاب الله؛ ما سأله إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر رضي الله عنه فسأله عن آية من كتاب الله، ما سأله إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم عليه السلام، فتبسم حين رأي، وعرف ما في نفسي، وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «الحق»، قال: فتبعته، فدخل فوجد لبناً في قده، فذكر قصته في سقاية النبي ﷺ له حتى روي، والنبي ﷺ لا يزال يقول له: «اشرب، اشرب» حتى قال أبو هريرة: «والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً»^(١).

ومن ذلك ما فعله جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما حُفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»، ثم صنع طعاماً، فدعا رسول الله ﷺ، فدعا الرسول ﷺ أهل الخندق كلهم، وعددهم ألف، فأكلوا حتى شبعوا^(٢).

ومثله عمل أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه حين رأى الرسول ﷺ في المسجد، فجاء مسارعاً إلى زوجته أم سليم يقول لها: «لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فقام باستضافة

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩).

الرسول ﷺ وأصحابه، فأكلوا حتى شبعوا»^(١).

فهنيئاً لجابر وأبي طلحة قراءتهما الصحيحة لحال النبي ﷺ ثم مبادرتهما بصنع الطعام له؛ ما أسعدهما بالفوز! يطعمان سيد الخلق وأصحابه على حاجة؛ تالله إن هذا لهو الفوز المبين.

وإن من المبادرات المحمودة في بر الوالدين ذكاء الولد، فيحسن قراءة حال والديه، فيبادر بتلبية رغباتهم دون أن يطلبوها، ويقضي حاجاتهم دون أن يقولوها، وما أجمل هذا الابن المبادر!

وإن من توفيق الله للمرء في أسرته أن يحمل هم أسرته، فيبادر فيكون سبباً في اجتماعها، ولم شملها، وإشاعة روح المودة والألفة بين أقاربه، وإذا رأى بوادى فرقة بين أختين أو أخوين، لم يمهل حتى يتسع الشقاق، ويحصل الفراق؛ بل كان سيد الموقف؛ يبادر بالإصلاح؛ ويتحمل في ذلك التبعات، فله در هذا المبادر؛ لقد أخذ بأخلاق الأكابر.

ومن المبادرات الموفقة أن ترى مسلماً مهموماً محزوناً، فتبادر إلى إسعاده، وإضحائه، دون أن يطلب ذلك منك، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استأذن، فدخل على النبي ﷺ فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً ساكتاً، فقال:

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

«لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتني النفقة، فقامت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ» (١).

قال النووي: «فيه استحباب مثل هذا، وأن الإنسان إذا رأى صاحبه مهموماً حزيناً يستحب له أن يحدثه بما يضحكه، أو يشغله ويطيب نفسه» (٢).

وإن من التوفيق في المبادرة أنك إذا سمعت فائدة في إذاعة، أو كلمة طيبة في خطبة، أو قصة مفيدة في مجلس، أن تبادر لنشرها، فيكون لك بذلك أجر من انتفع بها، ولا تتراخ بحجة أن من سمعها كثير، فسيبلغونها الناس، فقد تتفاجأ أنه لم ينقلها أحد، وهذا دليلٌ عجيبٌ في ذلك:

حدّث التابعي علقمة بن وقاص الليثي العتوري رَحِمَهُ اللهُ فذكر أنه سمع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو على المنبر، يخطب بحديث النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (٣).

والعجيب هو أنه لا يعرف راو نشر الحديث في الناس غيرَ علقمة، مع أن الحديث عظيم الشأن؛ إذ هو أحد قواعد الإسلام العظام، وقد سمعه من عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الجُمُ الغفير، والفئام

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٨١/١٠).

(٣) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

الكثير؛ إذ بلغه عمر، وهو على المنبر، ومع ذلك لا يعرف له ناقل غير علقمة، فيالله كم لعلقمة من الأجر بسبب نشره لهذا الحديث.

ومن المبادرات الموفقة اغتنام الفرص النادرة، كمجالس العظماء، بكلمة طيبة تنفعك وتنفع من وراءك، ومن أعظم تلك المبادرات، مبادرة أبي جعفر الباقر عليه السلام إذ أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه له بالسؤال، فسأله عن حجة النبي ﷺ ^(١)، فكان سبباً مباركاً في نشر صفة حجة النبي ﷺ بهذا السرد العظيم، الذي لا يوجد له نظير في السُّنة، وكان قد أدرك جابراً في آخر حياته؛ فله كم لأبي جعفر من الأجر بسبب هذا الحديث.

وإذا نظرت في سبب تأليف بعض الكتب العظيمة وجدت أن السبب الأكبر إنما هو مبادرة سائل، ومنها على سبيل المثال: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«التدمرية»، و«الحموية»، و«الواسطية»، و«نخبة الفكر»، وغيرها؛ وهذا من بركة الله لعبده أن يبارك له في كلامه، فيكون سبباً في خير عظيم.

وبعد فهذا غيض من فيض من الأمثلة في مبادرات الموفقين، وإلا فسُبل مبادرات الموفقين ومجالاتها كثيرة ومتنوعة، يفتح الله بها على من يشاء من عباده، فاللَّهُمَّ أعطنا ولا تحرمنا.

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

سلطان الحب

للحُبِّ أثر كبير في التحكم بالمشاعر، والحكم على الآخرين، وقديماً قال عبد الله بن معاوية:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلَةٌ كما أن عين السخط تبدي المساويا^(١)

فتجد بعض الناس إذا أحب قَبِلَ محبوبه على عِلاته؛ وعدَّ عيوبه محاسن وأفضالاً، على ما قال أبو نواس:

ويقبح من سواك الفعلُ عندي وتفعله فيحسنُ منك ذاك!^(٢)

ويقول امرؤ القيس في محبوبته أم جندب:

ألم ترَياني كلما جئتُ زائراً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيبِ^(٣)

فانظر كيف جعلها معطرة الأردان، وهي لم تمس طيباً!

وفيما يروى عن النبي ﷺ قوله: «حُبُّك الشيء يعمي ويُصم»^(٤)، وقد بَوَّبَ عليه أبو داود بـ: «باب في الهوى».

(١) عيون الأخبار (١٦/٣).

(٢) ديوان أبي نواس (ص ٤٧٣)، وفي محاضرات الأدباء (٥٤/٢) نسب للمتنبّي.

(٣) ديوان امرئ القيس (ص ٧٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٣٠)، والأقرب أنه موقوف على أبي الدرداء، ينظر: مختصر سنن أبي داود، للمنذري (٤١٩/٣).

ومن الفكاهات المصنوعة في كتب الأدب أن الخنفساء قالت لأمها: ما أمرُّ بأحدٍ إلَّا بزق عليّ، قالت: من حُسنك تُعوّذين! (١).

وكما قيل:

كل امرئ حسنٌ في عين والده والخنفساء تسمّي بنتها القمر (٢)
ولا يلام المرء على سلطان الحب الذي يهجم على قلبه،
وفي الحديث الذي يروى عن النبي ﷺ قوله: «اللَّهُمَّ هذا قسَمي
فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» (٣).

قال الترمذي: «يعني به: الحب والمودة، كذلك فسّره
أهل العلم» (٤).

ولكن يلام على الحب الذي يقبل به من محبوبه كل شيء
حتى ولو كان باطلاً؛ فربما جاره على خطئه، وربما جبن عن
نصيحته خوفاً من خدش مشاعره، وربما قرّبه في إدارته التي
أوّتمن عليها، وغيره أحق منه.

فإذا أبغض أو حسد لم يقبل من مُبَغْضِه ومَحْسُودِه شيئاً،

(١) عيون الأخبار (٤/٤٢).

(٢) بلا نسبة كما في زهر الأكم في الأمثال والحكم (٣/٨٢).

وهو بمعنى المثل العامي المشهور: «القرد بعين أمه غزال».

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي في
الكبرى (٨٨٤٠)، وابن ماجه (١٩٧٢)، ورجح الترمذي إرساله.

(٤) جامع الترمذي عقب تخريجه للحديث.

حتى ولو كان حقاً؛ بل جعل محاسنه عيوباً، وحسناته ذنوباً، وفرح بزنته، وطرب لعلته، وقد اشتكى من ذلك البحثري فقال:
إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت عيوبي فقل لي كيف أعذر^(١)

وترى هذا المحب العاطفي يقف على العمل المتقن الذي يستحق الثناء، يأتي به غير المحبوب، فيتلقاه بكل برود وامتهان، أو يحقر شأنه، ويهون أمره، ومما يذكر هنا ما ذكره إسحاق الموصلي أنه أنشد أحد الأدباء الكبار شعراً على أنه لشاعر قديم، وهو:

هل إلى نظرة إليك سبيل فَيَبِلُ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ
إنَّ ما قلَّ منك يكثر عندي وكثيرٌ من الحبيب القليلُ
فقال لي: هذا والله الديباج الخُسرَواني^(٢)، فقلت له: إنه ابن ليلته، فقال: لا جرم والله إنَّ أثر التكلّف فيهما ظاهر! فقلت له: لا جرم أن أثر الحسد فيك!^(٣)

ومثله ما قال الشيخ عبد الله الهدلق: (كان لي عدو من الأصدقاء، كان مثلي يتأدب، لكن على شيء من اللؤم، فهو لا

(١) ديوان البحثري (ص ٩٥٤).

(٢) الخُسرَواني: بضم الخاء، وسكون السين، وفتح الراء: كلمة فارسية معرّبة، منسوبة إلى عظماء الأكاسرة، ومعناها: الحرير الرقيق الحسن الصنعة. ينظر: المعجم العربي لأسماء الملابس (ص ١٤٩).

(٣) تاريخ بغداد (٧/ ٤٥٣)، الوساطة بين المتنبّي وخصومه (ص ٥٠).

يكاد يسلم لي بموهبة، فتحيننت منه غرة يوماً، فقلت له: ما أروع ما قال شكسبير: «أجمل ما في اللوحة؛ الإنسان الذي يتأملها» قال: فأخذته الكلمة من نفسه، ثم لم يعد. فقلت له: ارفق بنفسك، فوالله ما عرفها شكسبير، وإنما الكلمة لي، فتغير وجهه، وانتفخت أوداجه.. ثم قال: الحق أن الكلمة ليست بذلك!!^(١).

ولا يسلم أحد من غائلة هذه المشاعر إلا من رحم الله، فمستقل ومستكثر، والذي ينبغي لمن ينشد الإنصاف أن يكون مقتصداً في عاطفته، معتدلاً في حكمه، فلا يكن حبه كلفاً، ولا بغضه تلفاً، يعمل في حق من يحبهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ويعمل في حق من يبغضهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، يشي على الحق، ولو كان قائله ليس حظياً عنده؛ فليس شيء أعدى للإنسان من الشيطان، ومع ذلك قال عنه الرسول ﷺ مخاطباً أبا هريرة رضي الله عنه: «صدقك وهو كذوب»^(٢).

وهذه منزلة رفيعة لا يصل إليها إلا امرؤ عظيم المروءة، زكي النفس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(١) ميراث الصمت والملكوت (ص ٥٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٢٩)، وعلقه البخاري (٢٣١١).

سلطان الغضب

ألمني سؤال وجهته امرأة إلى اللجنة الدائمة للإفتاء تقول فيه السائلة: «كان لي طفلٌ عمره ثلاث سنوات، وقد كان كغيره من الأطفال، يميل إلى العبث والشغب، وفي أحد الأيام، وكان الوقت ظهراً طلب من أمه الطعام، فأطعمته حتى شبع، وتركت بين يديه بعض الخبز، بناءً على رغبته، وذهبت لأعمالها المنزلية، وبعد ساعة تقريباً عادت فوجدت ولدها المذكور قد فتت الخبز على الأرض والفراش، فغضبت منه ودعت عليه قائلة: أرجو من الله أن تموت، وأن لا تأكل غيره، فهرب الولد إلى منزل جدته، ونظفت الأم المكان، وعادت إلى أعمالها المنزلية، وبعد قليل مات الولد فعلاً، والآن أمه ضميرها تعبان، ومريضة، وضميرها يؤنبها على ما حصل، وتريد من فضيلتكم أن تفتوها على ما قالت من كلمات بحق ولدها...». انتهى سؤالها.

وكان من جواب اللجنة الدائمة: «على هذه المرأة أن تكثر من الاستغفار، ولا تعود لمثل ذلك، وليس عليها دية ولا كفارة»^(١).

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٢٤/٢٢٤ - ٢٢٥).

أجيت دعوة هذه الأم بعد دعائها المستعجل على ابنها؛
فأضحت تلوم نفسها أشد اللوم على فعلتها هاته، ولكن
هيئات؛ فالبكاء على اللبن المراق لا ينفع، عوضها الله خيراً.
فبالله عليكم، ما الذي جر هذه المرأة المسكينة إلى هذه
الفعلة المشينة مع ولدها؟

إنه الغضب، وما أدراكم ما الغضب؟

جمرة توقد في جوف الإنسان، تحمر منه العينان، ويتنفخ
الودجان، وتخرج به النفوس عن طبيعتها؛ فبعد أن كان الرجل
رزيناً محموداً؛ إذ به ينقلب ثائراً منكوداً، يكاد يتميز من
الغيظ.

فكم جلب من أمراض؛ وكم فرق من أصحاب، وكم
قطع من صلوات، وكم أذكى من عداوات، وكم ولّد من
شحناء، وأسأل من دماء، وكم وقع به من طلاق، وسبّب من
فراق، وتأتى الرجل الغضبة فيصرم ابنه الذي هو حُشاشة
فؤاده، وثمره قلبه بالدعاء المرّ المهلك، فتحل القارعة بابنه،
وتنزل المصيبة بأهله، ويكون هذا الوالد الداعي أوّل المنكوبين
النادمين؛ فلا يزال يقرع سنه، ويعض أصابعه، ويتجرع
ويلات التعجل، وغصص الندم، كما في حال هذه المرأة
السائلة.

وقد جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله علمني
شيئاً، ولا تكثر علي لعلي أعيه، قال: «لا تغضب»، فردد ذلك

مراراً كل ذلك يقول: «لا تغضب»^(١).

وفي حديث آخر أن الرجل لمّا أوصاه النبي ﷺ بعدم الغضب قال: «ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله»^(٢).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: ماذا يباعدني من غضب الله ﷻ؟ قال: «لا تغضب»^(٣).

وقد قيل لابن المبارك: «اجمع لنا حُسن الخُلق في كلمة، قال: ترك الغضب»^(٤).

وإن أحسن طريق للتعامل مع الغضب هو التّأسي بحال النبي ﷺ عند الغضب؛ فقد كان النبي ﷺ لا يغضب لنفسه، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها»^(٥).

وإليكم مثلاً عملياً واحداً في ذلك يرويه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبة شديدة، رجع بها النبي ﷺ في نحر الأعرابي، وانشق البرد، ونظرت

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٣٥).

(٤) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/٣٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته^(١).

طيشٌ وجفاءٌ فعله هذا الأعرابي مع سيد ولد آدم ﷺ، ثم زاد الطين بلةً، فأساء في القول كما أساء في الفعل فقال: «يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك»، ولم يقل: يا رسول الله، وإنما قال: يا محمد؛ هكذا يناديه باسمه مجرداً؛ وكأنما ينادي أحد الغلمان!

ثم قال: «مُر لي من مال الله الذي عندك» هكذا يخاطبه بصيغة الأمر الجازم؛ وكأنما يفرض على الرسول ﷺ أمراً عسكرياً!

فما ترون النبي ﷺ فاعلاً في مثل هذه الأحوال التي تستثار فيها الحفيظة، وتستفز فيها النفوس؟! ما زاد إلا أن التفت إلى هذا الأعرابي فضحك. وهل انتهى الموقف؟ لا بل أمر له بعطاء؛ فصلّى الله وسلّم على هذا النبي الحليم الكريم، وما أجمل ما قال أحمد شوقي:

يا من له الأخلاق ما تهوى العُلا منها وما يتعشّق الكُبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائلٌ يُغرى بهنّ ويُولع الكرماء
فإذا غضبتَ فإنما هي غصبةٌ للحق لا ضغنٌ ولا شحنةٌ^(٢)

(١) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) ديوان أحمد شوقي (ص ٤٢).

ومما يوصى به عند الغضب السكوت، وفيما يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «إذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت»^(١).

وهو من أفضل ما يعالج به الغضب؛ إذ المتكلم أثناء الغضب مضطرب المزاج، طائش العقل، غير مستقر النفس؛ فإذا سكنت نفسه، وذهب غضبه؛ وثاب إلى رشده أخذ يقلب كفيه ندماً على زوجته التي طلقها، ودعوته التي أطلقها، وقريبه الذي زجره وعنّفه، وصديقه الذي هزّاه واتهمه؛ ولذا نهى رسول الله ﷺ عن الدعاء عند الغضب فقال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجيب لكم»^(٢).

وكذلك يشرع عند الغضب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فقد استبّ رجلان عند النبي ﷺ فاحمرّ وجه أحدهما، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد»^(٣).

وهناك دعوة نبوية جامعة يحسن بالمسلم أن تكون حاضرة في دعائه، حتى يجد ثمرتها وقت الغضب، وهي: «وأسألك

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٦) وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).

كلمة الحق في الرضا والغضب»^(١).

وقد ورد في فضل من يملك غضبه قوله ﷺ: «ما تجرّع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله ﷻ»^(٢).

نعم قد تملك الحجة عند الغضب، فتؤثر عدم الإفصاح بها؛ احتراماً لوالد أو قريب أو صديق، وترجيحاً للمصلحة، كما فعل يوسف ﷺ لما اتهمه إخوته بالسرقة لم يزد على أن قال في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، ولم يعلنها لهم، وهذا دليل شهامة عظيمة، ومروءة كريمة.

والخلاصة أن من أراد الراحة في نفسه، والصحة في جسمه فليوطن نفسه على التحلُّم وعدم الغضب؛ أما من يغضب عند أدنى إثارة، ويستفزه شطر عبارة؛ فيوشك أن يهلك نفسه، والعلم بالتعلم، والحلم بالتحلُّم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه^(٣).

(١) أخرجها النسائي (١٣٠٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٣٣/٤).

(٣) وقد ورد فيما ينبغي أن يفعل عند الغضب جلوس الغضبان إن كان قائماً؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع، وكذا جاء الأمر بالوضوء عند الغضب، وهي أحاديث لا تخلو من ضعف.

إعلان الحب

كلمة: «الحب» كلمة لطيفة مليحة، يلتذ بلفظها اللسان، وتنعم بنطقها الشفتان، وتطرب لسماعها الأذنان، هي كلمة قليلة المبنى، لكنها فخيمة المعنى، عظيمة المغزى، توثق العلائق، وتقوّي الروابط، وتسعد النفوس، وتبهج الأفئدة.

وما أرق كلمة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تحليل كلمة الحب إذ يقول: (تأمل كيف أتوا في هذا المسمى بحرفين:

أحدهما: الحاء التي هي أقصى الحلق؛ فهي مبدأ الصوت، ومخرجها قريب من مخرج الهمزة من أصل الصدر الذي هو معدن الحب وقراره.

ثم قرنها بـ«الباء»^(١) التي هي من الشفتين، وهي آخر مخارج الصوت ونهايته؛ فَجَمَعَ الحرفان بداية الصوت ونهايته؛ كما اشتمل معنى الحب على بداية الحركة ونهايتها؛ فإن بداية حركة المحب من جهة محبوبه، ونهايتها الوصول إليه، فاختراروا له حرفين هما بداية الصوت ونهايته؛ فتأمل هذه النكت البديعة تجدها لطف من النسيم، ولا تَعْلَقْ إلا بذهنٍ

(١) هذا الحرف الثاني؛ وهو قسيم «أحدهما» السابقة.

يناسبها لطافة ورقة^(١).

فإذا أردت أن تعيش حياة جميلة ملؤها التفاؤل والأمل،
ويسودها الأنس والسرور، فعليك أن تزيّنها بالحب.

وإن النفوس تحتاج إلى من يشعرها بالحب الصادق؛
فالإنسان مركب من روح ومشاعر، فليس جماداً أصم، ولم
يخلق قلبه من حجر، ولم ينحت جسمه من جبل.

وإننا حين نتكلم عن الحب، فلا نعني به ما ذكره
الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «وما الحب مهما
زخرفه الشعراء، وزوقه الأدباء إلا رغبة في الاتصال الجنسي
لم تجد طريقها»^(٢)، وهذا أكده الإعلام في بعض وسائله،
وبعض الكتاب في رواياتهم؛ حيث جعلوا الحب في لقاء
المرأة غير الشرعي بالرجل، وسموا العلاقات الجنسية الآثمة
لقاءات حميمة دافئة، وهذا تحريف خطير، وظلم للحب
كبير، انطلى أثره على بعض الناس، فصار ينفر من كلمة
الحب.

ولا نعني بالحب حبَّ النفعيين الوقتيين أصحاب المصالح
الذين يتملقونك ويجلونك لأجل مصالحهم؛ فإذا انقضت
انقضت محبتهم، واندفت حفاوتهم كما قيل:

(١) بدائع الفوائد (٢/٥٢٦)، وينظر: مدارج السالكين (٣/١٢).

(٢) مع الناس (ص ٥٣).

وكان بنو عمي يقولون مرحباً فلما رأوني معدماً مات مرحباً^(١)

إن الحب الذي ينبغي أن يعلن ويبذل هو الحب الصادق في الله؛ الذي يقوم على التضحية والعطاء، وصدق النصيحة والوفاء.

وإن الحب بهذا المعنى الإنساني الشريف ثقافة ينبغي أن تنشر، ولغة يتأكد أن تدرّس، وأحاسيس ينبغي أن تضاء بها الحياة.

وإنك لتجد من بعض الناس جفاءً كبيراً لكلمة الحب، فهو يحب ولكن لا يعلن، ويشتاق ولكن لا يظهر، فلا يذكر عن نفسه أنه صرّح بحبه لأحد، ولا يكاد يلفظ كلمة الحب لا لزوجة ولا ولد، وهذا خلاف الهدي النبوي؛ فقد اعتنى ﷺ بإعلان الحب قولاً وعملاً:

فقد قال ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمِهِ إِيَّاهُ»^(٢).

ومرة كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِساً وَعِنْدَهُ رَجُلٌ، فَمَرَّ رَجُلٌ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأَحِبُّ هَذَا فِي اللَّهِ.

فهل سكت النبي ﷺ حين قال له الرجل: إِنِّي لِأَحِبُّ هَذَا؟ لا؛ بل قال له: «أَخْبِرْتَهُ بِذَلِكَ؟» قال: لا، قال: «قِم

(١) عيون الأخبار (٣٤٧/١) ولم يعزه لأحد.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٣١)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٣٤)، وصححه الترمذي.

فأخبره ثبت المودة بينكما»، فقام إليه فأخبره، فقال: إني أحبك في الله. فقال الرجل: أحبك الذي أحببني فيه^(١).

إن رسولنا ﷺ وهو يأمر بالتصريح بالحب بين المتحابين ليرمي بذلك إلى ائتلاف القلوب، واستمالة النفوس؛ فالتصريح بالحب يجدد المودة، ويفتح الأبواب الموصدة.

ولما بعث الرسول ﷺ بعثاً، وأمر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه طعن الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: «قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإنه أحب الناس إلي»^(٢).

ومرة أمسك رسول الله ﷺ بيد معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال له: «يا معاذ! والله إني لأحبك»^(٣).

فيا ترى ما شعور أسامة ومعاذ وهما يسمعان النبي ﷺ يعلن محبته لهما؟ رضي الله عنهما وأرضاهما.

وأما رسولنا ﷺ مع زوجاته فإنه لا يجد أدنى غضاضة في تصريحه بالحب لهن، فقد قال عن خديجة رضي الله عنها: «إني قد رزقتُ حبها»^(٤)، وسأله مرة عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال له: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة»^(٥)، ومرة قال ﷺ لابنته

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢)، وأحمد (١٣٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٨)، ومسلم (٢٤٢٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٣٤٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

فاطمة رضي الله عنها: «أي بنية أُلست تحبِّين ما أحب؟» قالت: بلى، قال: «فأحبي هذه؛ يعني: عائشة» ^(١).

وبعض الأزواج يخفي عن زوجته حبها؛ وربما فهم أن إفشاء الحب لها عيب في رجولته، وآفته من الفهم السقيم.

بل إن إعلان النبي ﷺ للحب لم يكن مقتصرًا على الكبار؛ بل يعلنه للصغار، فمرة رأى صبيانا ونساءً مقبلين من عرس، فقام ﷺ، فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ؛ يعني: الأنصار» ^(٢).

ومرة ذهب ﷺ إلى بيت فاطمة رضي الله عنها فدعا الحسن رضي الله عنه فجاء مسرعاً، فعانقه النبي ﷺ، وقبله، وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبُّهُ، فَأَحْبِّهِ وَأَحْبِّ مِنْ يَحْبُّهُ» ^(٣).

ولم يقتصر إعلانه ﷺ للحب لمن كان في زمانه؛ بل إنه صرح بأنه يود رؤية أتباعه الذين يأتون من بعده، فقال: «وددت أن قد رأينا إخواننا».

فيتعجب الصحابة الكرام فيقولون: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ فيقول النبي ﷺ: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد» ^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٨٤)، ومسلم (٢٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩).

فيا له من مجد عظيم، وشرف باذخ لكل من آمن
بالنبي ﷺ ولم يره، بأن يوصف بأنه أخ للرسول ﷺ،
ويتمنى ﷺ أنه رآه في الدنيا، أو أنه يتمنى لقاءه بعد
الموت^(١).

يقول ابن العربي: «فيه تشريف الأمة بتمني النبي ﷺ أن
يراه، فنحن أولى أن نكون لرؤيته أشد تمنياً، وأكثر
تطلعاً»^(٢).

والخلاصة أن إفشاء الحب الشريف الصادق دليل على
زكاء ونقاوة، ورغبة صادقة في استدامة العلاقة، ومن أعلن
محبتته أوجب مودته.



(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٣٨).

(٢) القبس (١/١٥٣)، والمسالك (٢/١٠١).

النميمة الحسنة

من المعلوم أن نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد والتحريش محرم شرعاً؛ فهو النميمة التي ورد الوعيد الشديد على فاعلها؛ لكنّ هناك نقلاً للكلام يستحب إعماله، ويقع عند كثير منا إهماله؛ ألا وهو نقل كلام الناس الحسن بعضهم في بعض؛ وذلك حين تسمع من أحد الناس ثناء صادقاً على أحد أصحابك أو أقاربك، فيحسن بك أن تنقل هذا الثناء؛ فيه يتوثق الحب، ويشتد حبل الود.

وهذه حادثة من السيرة في ذلك وقعت لأعظم رجلين عرفتتهما البشرية بعد الأنبياء والمرسلين؛ أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقد جرى بينهما تسابق وتنافس، فعلى أي شيء تسابقا؟

يحدث عمر رضي الله عنه عن هذا السباق، فيقول: (كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمر في الأمر من أمر المسلمين عند أبي بكر رضي الله عنه وأنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، ثم خرج رسول الله ﷺ وخرجنا نمشي معه، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلما أعيانا أن نعرف من الرجل؟ قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يقرأ القرآن

غضباً كما أنزل فليقرأه على ابن أم عبد» ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «سل تعطه»، قال عمر: فأدلجت^(١) إلى عبد الله بن مسعود لأبشره بما قال رسول الله ﷺ، فلما ضربت الباب قال: ما جاء بك هذه الساعة؟ قلت: جئت لأبشرك بما قال رسول الله ﷺ. قال: قد سبقك أبو بكر. قلت: إن يفعل فإنه سباق بالخيرات، ما استبقنا خيراً قط إلا سبقنا إليها أبو بكر^(٢).

فتأمل - أيها القارئ الكريم - هذا التسابق العجيب من هذين الصحابييين العظيمين في نقل هذا الخبر السعيد لهذا الصحابي، وكيف أنهما بادرا ولم ينتظرا النهار؛ بل هرعا مدلجين في الليل، كلٌّ منهما لا يدري عن صاحبه، وإذا بعمر يُفاجأ بأن أبا بكر سبقه بالبشرى، فهو السابق الذي لا يجارى، والفارس الذي لا يبارى، فرضي الله عنهما، ما أزكاهما، وأجمل فعالهما!

وما كانا ﷺ ليبادرا بنقل هذا الخبر السار إلا أنهما يعرفان جلالة أثره، وعظيم وقعه في نفس من قيلت فيه وهو ابن مسعود رضي الله عنه.

إن هذه الحادثة لتفيد مشروعية نقل كلام الناس الحسن بعضهم في بعض، وهذا الأمر يسير فعله؛ محمود أثره، فهو لا

(١) قوله: «فأدلجت»؛ أي: بگرت بالمجيء إليه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥) وإسناده صحيح.

يكلف مالاً، ولا يتطلب جهداً، وإن لم تسعد الحال فليسعد
المقال.

فأكرم بذلك الرجل الذي ما إن سمع فيك ثناءً صادقاً إلا
وجاءك فرحاً جذلانَ مسروراً يبشرك به!

وما أجمل ذلك الشاب ينقل مشاعر الحب بين والديه
وإخوته وأقاربه!

وأكرم بطالب علم يشيع عبارات الود والتقدير بين شيوخه
بعضهم مع بعض!

وما أحسن ذلك المسؤول يبادر بنقل الثناء الصادق بين
موظفيه!

إن النفوس مجبولة على التأثر بالثناء الصادق مهما كانت
منزلتها؛ وما أجمل ما فعل ذلك الرجل الذي نقل للإمام أحمد
ثناء بشر بن الحارث عليه، يحدث بذلك عبد الله ابن الإمام
أحمد فيقول: «جاء رجل إلى أبي فذكر أنه كان عند بشر بن
الحارث، فذكروه فأثنى عليه بشر، وقال: لا ينسى الله
لأحمد بن حنبل صنيعه، ولولاه لهلكنا، قال عبد الله: ووجه
أبي يتهلل. فقلت: يا أبت أليس تكره المدح في الوجه؟ فقال:
يا بني إنما ذكرت عند رجل من عباد الله الصالحين، وما كان
مني فحمدَ صنيعي...»^(١).

ومن ذلك ما جاء عن محمد بن أبي بشر، قال: «أتيت أحمد بن حنبل في مسألة، فقال: ائت أبا عبيد؛ فإن له بياناً لا تسمعه من غيره، فأتيته، فشفاني جوابه، فأخبرته بقول أحمد، فقال: ذاك رجلٌ من عَمَالِ الله، نشر الله رداء عمله، وذخر له عنده الزلفى، أما تراه محبباً مألوفاً، ما رأت عيني بالعراق رجلاً اجتمعت فيه خصالٌ هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم...»^(١).

فقد أحسن محمد بن أبي بشر بنقل ثناء الإمام أحمد على الإمام أبي عبيد، وتأمل في أثر هذا الكلام في نفس أبي عبيد! وإنه ليتأكد نقل الكلام الحسن بين المتخاصمين بعضهم في بعض؛ بل يجوز في مثل هذه الحال الكذب لأجل مصلحة الاجتماع؛ ولو دعت الحاجة في الإصلاح إلى الحلف الكاذب فلا حرج في ذلك^(٢). ، فقد قال النبي ﷺ: «ليس الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين النَّاسِ فيقول خيراً أو يَنْمِي خيراً»^(٣).

وعلى الضد من ذلك تجد من الناس من في نفوسهم دناءة، وفي قلوبهم مرض، لا يحبون أحداً أن يمدح عندهم، فإن مُدِحَ أحدٍ ضاقت صدورهم، فبادروا بالاستثناءات

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٢٠٠).

(٢) ينظر: فتاوى نور على الدرب (٤/١٩٦٤)، ومجموع الفتاوى (١/٥٤) كلاهما لابن باز.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

والاستدراكات قدحاً في الممدوح، وتقليلاً من شأنه، يفشون المعاييب، ويسترون المحاسن على ما قيل:

صمّ إذا سمعوا خيراً ذُكرت به وإن ذُكرت بسوءٍ عندهم أذِنوا
إن يسمعوا سُبَّةً طاروا بها فرحاً مني وما يسمعوا من صالحٍ دفنوا^(١)

وفي هؤلاء يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن الناس من طبعه طبع خنزير يمر بالطيبات فلا يلوي عليها... وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها، ولا ينقلها، ولا تُناسبه، فإذا رأى سقطَةً أو كلمةً عوراء وجد بُغيته وما يُناسبها، فجعلها فاكهته ونقله»^(٢).

ومما يدخل في ذلك أن يستشار بعضهم عن شخص، ثم لا يذكر من محاسنه شيئاً، وهو يعرفها تمام المعرفة؛ وهذا لؤم ودناءة؛ وقد قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «من سئل عن فضائل صاحبه فكتمها، فهو آثم؛ لأن إخفاء الفضائل كذكر الرذائل»^(٣).

اللَّهُمَّ اهدنا للطيب من القول، وسدّد ألسنتنا.

(١) البيتان لقنّب بن ضمرة، كما في عيون الأخبار (٣/٩٦).

(٢) مدارج السالكين (١/٤٠٦).

(٣) شرح صحيح مسلم، لابن عثيمين (٩/٢٣٢).

كن معاذ المجلس

تصور أنه نُقِلَ إليك عن مجلس من المجالس أنك ذُكرت فيه، فوقع فيك أحد الحاضرين، فلمزك أو افترى عليك، فباغته أحد مَنْ حضر، فانبرى في الدفاع عنك، فأخذ يزكيك، ويفنّد هذا الكلام الذي قيل فيك، فما شعورك تُجاه هذا الرجل المُدافع؟

لا شك أنك - بطبيعة النفس البشرية - ستأنس لهذا الرجل، وتعهده واثق المودة، صادق الإخاء، جزل المروءة، ولن تنسى وقفته في غيبتك؛ فقد جبلت النفوس على محبة من أحسن إليها.

إذن - فضلاً - تأمل معي هذا الموقف:

الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خلّفوا في غزوة تبوك، وقد تاب الله عليهم، يذكر قصته حين كبر سنه، وكُفَّ بصره، فيذكر أحداثها وتفاصيلها، فلا يُغفل ذكرَ موقف حصل في تلك الغزوة، هذا الموقف يذكره أهل الحديث والسير لا يجاوز سطرين، مما يدل على أن مدته الزمنية هي أقل من دقيقة تقريباً، لكنّ كعباً لم ينسه، فما هذا الموقف؟!

يتحدث كعب عن هذا الموقف فيقول ﷺ: «لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه، والنظر في عِطفيه! فقال معاذ بن جبل: بنس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً»^(١).

فانظر كيف أثّرت هذه الكلمة اليسيرة في قلب كعب؛ فلم ينسها، وقد مضى عليها سنين متطاولة؛ وما ذاك إلا لعظيم أثرها في نفسه.

إن من الشجاعة الممدوحة، والبطولة المحمودّة أن تقف أمام هذا الطاعن في أخيك، فتبين خطأه، وتكشف عواره، وإنه لضعف ومهانة أن تسكت وأنت تعلم أن هذا كذب وافتراء، وأشد منه أن تمالئ هذا الطاعن على البغي والعدوان؛ فهذا خذلان ولؤم وخور.

ومن جميل ما يذكر هنا ما ذكره الحسن بن أحمد بن الليث قال: سمعت أحمد بن حنبل، وسأله رجل فقال: بالري شاب يقال له: أبو زرعة.

فغضب أحمد، وقال: تقول شاب؟ كالمنكر عليه، ثم رفع يديه وجعل يدعو الله لأبي زرعة، ويقول: اللَّهُمَّ انصره على من بغى عليه، اللَّهُمَّ عافه، اللَّهُمَّ ادفع عنه البلاء، اللَّهُمَّ،

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

اللَّهُمَّ، في دعاء كثير^(١).

فتأمل موقف الإمام أحمد، وكيف أنه غضب من كلمة: (شاب) وأحس أن فيها انتقاصاً من العالم الكبير أبي زرعة، وأبو زرعة كان يصغر الإمام أحمد بأكثر من خمس وثلاثين سنة، ومع ذلك نصره، ودعا له، فرحم الله هذا الإمام الكبير.

فلا يفوتك أن تكون شجاعاً؛ فإذا حضرت مجلساً ثم تجاوز أحدهم، فوقع في أحد بغير حق فلا تسكت؛ بل كن معاذ المجلس، وصدق القائل:

وليس أخي من ودّني رأي عيّنه ولكن أخي من ودّني في المغايب^(٢)

ومن المواقف التي تبهر من يقرأها في هذا الباب، ولا ينقضي العجب من حسنها وجمالها، ولا تزيدك قراءتها إلا اندهاشاً بصاحبها، موقف شيخ الإسلام ابن تيمية مع أولئك الذين سعوا به إلى السلطان، وأفتوا بقتله، ثم خلا السلطان بابن تيمية، وأخبره بمكيده هؤلاء له، واستشاره فيهم، فماذا قال ابن تيمية؟

يحكي الموقف ابن عبد الهادي، فيقول: «سمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذكر أن السلطان لما جلس بالشباك

(١) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١/٣٤١).

(٢) في حماسة البحري (ص ٣٦٠)، نسب لصالح بن عبد القدوس، وفي سمط اللآلئ (١/٢٧١) نسب لشار بن برد، ونسب لغيرهما.

أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم».

قال ابن تيمية: «فهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه، وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم، والثناء عليهم، وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك! أما أنا فهم في حلٍّ من حقي ومن جهتي، وسكنت ما عنده عليهم».

قال ابن عبد الهادي: «فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية؛ لم نُبَقِّ ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»^(١).

يدافع عنهم، وقد أفتوا بقتله؛ ولم يقل: هذه فرصتي فيهم قد سنحت!

بل يثني عليهم ويشكرهم، وليس ثناء مألوفاً؛ بل يفخّم أمرهم، ويعظّم شأنهم بأنك أيها السلطان لن تجد مثلهم في دولتك لو ذهبوا!

إنها لجلالة باهرة، وعظمة باذخة نادرة، ورحم الله تلك الروح الزكية الطاهرة.

(١) العقود الدرية (ص ٢٩٨ - ٢٩٩).

ما علمت عليه إلا خيراً

هذه الجملة اللطيفة: «ما علمت عليه إلا خيراً» جملة ذائعة شائعة، تقال في التزكية والتعديل، ولكن استوقفني ورودها في ثلاثة مواقف، تستحق التأمل، وهذا نبأ هذه المواقف:

■ **الموقف الأول:** في حادثة الإفك يُطعن رسولنا ﷺ في عرضه، وتلقى التهمة على أحب نساءه، ويؤتوهم السوء في رجل من أصحابه، وهو صفوان بن المعطل، وتشيع هذه القالة في المدينة.

إنه موقف عصيب؛ وامتحان كبير، ومع ذلك لم يتغير رأيه ﷺ في عائشة، ولا في صفوان؛ بل أثنى ﷺ عليهما خيراً، فقال: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً»^(١).

إن النبي ﷺ بكلامه الطاهر هذا ليرسم لنا منهجاً ينبغي لنا أن نفتفيه في ظل تفشي الأخبار الكاذبة، والشائعات الآثمة.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

فإنك تجد بعض الناس ما إن يسمعون خبر سوءٍ عن أحد إلا يسارعون إلى تصديقه، دون أن يتبينوا صدق الدعوى؛ بل يسيرون في نشره زرافاتٍ ووحداناً، ويشعلون بذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وربما كان صاحب الشأن بريئاً من قائلتهم، نقيّ الثوب من تهمتهم.

ولذا فالرجل الرزين الرصين، ليس إمعة يتبع كل ناعق، وليس خفيفاً يسارع بتصديق كل جارح؛ بل يتأني ويتوقّى، ولا يخوض في شأن أحدٍ إلا شأناً ثابتاً خبره، ظاهرة مصلحته، بينة فائده، فيحفظ بذلك دينه وعرضه.

■ **الموقف الثاني:** في حادثة الإفك - أيضاً - يسأل

الرسول ﷺ زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ويقول: «يا زينب ماذا علمت؟ أو رأيت؟».

فهل قالت زينب: هذه فرصة تهتبل، وموقف كبير يستغل، فسأذكر من مساوئ جارتني، ما يزهّد الرسول ﷺ فيها؟ أو قالت: نعم يا رسول الله، يمكن أن يحدث منها ذلك؟

كلا، لم تقل زينب شيئاً من ذلك، ولو قالت - وحاشاها أن تفعل - لقليل: هذا أمر متوقع حدوثه بين الضرات، وقد كانت أختها حمنة بنت جحش تحارب لأختها زينب، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك».

لكن صاحبة الشأن وهي زينب رضي الله عنها حفظها الله، ولم تقع في شيء من ذلك، وإنما أجابت النبي صلى الله عليه وسلم لما سألها، فقالت كلمة سطرتها كتب السُّنة والسير، لقد قالت: «يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً».

قالت عائشة: «وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله بالورع»^(١).

ما أعجب هذا! عائشة ضررتها، وهي التي تساميتها في الفضل، وتنافسها في الحظوة والمنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعلوم ما يجري بين الضرائر من الغيرة الشديدة والحسد، ومع ذلك تقول زينب هذا القول العظيم المنصف، فليله درها، ما أغلبها لهواها، وما أعظم دينها وتقواها!

■ **الموقف الثالث:** وقبل ذكره أضع له تمهيداً؛ فلتفترض أن رجلاً أتاك يسألك عن حال فلان من الناس؛ لأمر زواج أو نحوه من الحاجات التي تجوز فيها الغيبة، فأثنت على هذا الرجل، وقلت: لا أعلم عنه إلا خيراً، وأحسبه من الصالحين، وإذا بهذا السائل يفاجئك بأن هذا الرجل الذي تشني عليه يطعن فيك في عدة مجالس، فما أنت قائل في هذه اللحظة الحرجة التي باغتك فيها مثل هذا الكلام؟

فإن ثبتَّ على كلامك، وقلت: الرجل لا أعرف عنه إلا

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

خيراً، والرجل من الصالحين، وكلامه فيَّ وجهة نظر، فقد أوتيت حظاً من الحلم، ودخلت في عداد من ليس ينتقم لنفسه. وإن قلت: عفواً، يظهر أن الرجل قد تغير بعدي، ولا يستحق مثل هذا أن يزوج، ولا أن يصاحب، فقد انتصرت لنفسك!

إذن فاقراً هذا الخبر عن الإمام أحمد رحمته الله يحدث به المروّذي، فيقول: «ذكر له - يعني: الإمام أحمد - رجل، فقال: ما أعلم إلا خيراً، قيل له: قولك فيه خلاف قوله فيك؟ فتبسم، وقال: ما أعلم إلا خيراً، هو أعلم وما يقول، تريد أن أقول ما لا أعلم!»^(١).

أرايتم كيف تكون أخلاق الأكابر؛ إنها تنقلب إبريزاً عند الامتحان، يُحدّث الإمام أحمد، فيقال له: إن الذي تشي عليك يطعن فيك، فلا يتغير رأيه، ولا يطيش حلمه؛ بل يتبسم، ويشي عليه بما يرى أنه أهله، ثم يعتذر لهذا الطاعن: بأنه أعلم وما يقول!

إنه التوفيق الإلهي، وإذا أراد الله بعد خيراً طبع فيه صفات الخير، فيبذلها أسلس من الماء، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

انتهت هذه المواقف الثلاثة، وفحواها جميعاً أنه ينبغي لمن أوتي شهامة في طباعه، وسخاوة في أخلاقه، ألا يتغير

موقفه من أخيه بسبب اشتهار كلام عنه لم يتحقق ثبوته، وألا يمنعه الهوى والانتصار للنفس من أن ينطق بالحق، حتى ولو كان يظن أن فيه غضاضة عليه، والمسألة ليست باليسيرة، فلا يستطيعها إلا الأفراد الموفقون، الذين ذلت لهم سبل المكارم تذليلاً، وأوتوا في البر حظاً عظيماً؛ ولا ينالها إلا صاحب همه عليه؛ ذو مروءة جزلة؛ قد تَسَنَّمَ ذُرْوَةَ المجد، وأمَّ معالي الأمور، فكرمت خليقته، ونُبلت نفسه، فلم تلن قناته لغامز؛ فإن النفوس سريعة التأثير، متأهبة للانتصار، مستعجلة في تصديق الكلام إذا عمَّ واشتهر، والله - سبحانه - يقول: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

قال الزمخشري معلقاً على الآية: «فيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: هذا إفك مبين.

هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحسن الذي قلَّ القائم به، والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه...»^(١).

اللَّهُمَّ ارزقنا الإنصاف، وأعدنا من شرور أنفسنا.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَلَّغَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾

هذه الجملة جزء من آية كريمة من سورة النساء يدخل تحتها مسائل مهمة، يذكر الله به عباده ألا تنسيهم النعمة الحاضرة أحوالهم الماضية الناقصة، وأول ما يدخل في هذه الآية من النعم نعمة الهداية؛ فهي أعظم منّة، وأكبر نعمة.

يقول العلامة السعدي في تفسيرها: «فكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم، فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه»^(١).

فينبغي للمسلم أن يتذكر منّة الله عليه بالهداية، ولا يغتر فيسخر من العصاة والمخالفين؛ بل مع نصحه لهم يرحمهم، ويود لهم الخير، ويتلطف معهم بالخطاب، ويتجمل معهم بأحسن الآداب، فهذا العمل من أعظم السبل لهدايتهم وانتفاعهم؛ وهذه أخلاق المؤمنين، وهو تأسّ بالنبي الأمين ﷺ فقد قال الله - تعالى - له: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) تفسير السعدي (ص ١٩٤).

ولما قَدِمَ الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت، فادع الله عليهم، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا. فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دوساً وائت بهم، اللَّهُمَّ اهْدِ دوساً وائت بهم»^(١).

ومن لطيف ما يُذكر هنا ما أخرجه البيهقي عن إبراهيم بن الأطروش قال: «كان معروف الكرخي على دجلة ونحن معه، إذ مر بها أقوام أحداث في زورق يغنون ويضربون بالدف: فقلنا يا أبا محفوظ^(٢)، أما ترى هؤلاء في هذا البحر يعصون الله ﷻ، ادع الله عليهم، قال: فرفع يده إلى السماء فقال: إلهي وسيدي اللَّهُمَّ إني أسألك أن تفرحهم في الآخرة كما فرّحتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنا سألناك أن تدعو عليهم، ولم نسألك أن تدعو لهم. قال: إذا فرّحتهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، ولم يضرهم شيء»^(٣).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أئمة السُّنة والجماعة وأهل العلم والإيمان؛ فيهم العلم والعدل والرحمة؛ فيعلمون الحق، ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء؛ بل إذا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، وأحمد (٧٣١٥) واللفظ له.

(٢) كنية معروف الكرخي.

(٣) شعب الإيمان (٥/٢٩٤).

عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم؛ كان قصدهم بذلك بيان الحق، ورحمة الخلق..»^(١).

ولما نقل رَحْمَةُ اللَّهِ حُكْمَ الشافعي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، وأنهم مستحقون لهذا، عَقَّبَ عليه بنظرة رحمة لهم فقال: «ومن وجه آخر، إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم، والشیطان مستحوذ عليهم - رحمتهم وترفت بهم»^(٢).

فهذا نظر الناقد الحكيم العادل؛ فعقوبة هؤلاء ليست تشفياً ولا انتقاماً؛ وإنما لأجل إصلاحهم وزكائهم.

ومما يدخل في هذه الآية القرآنية غير مسألة الهداية مسائل أبان شيئاً منها العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية، فقال: «هذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالاً كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذه المعلم التلميذ بسوء إذا لم يقصر في أعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم، فيعتادون التشديد عليهم، وتطلب عثراتهم»^(٣).

وهذه لفظة جميلة من الطاهر، فكم من معلم ضيق الخلق مع طلابه، شديد المراس معهم، متصلب في تعامله، يحاسبهم

(١) الرد على البكري (ص ٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١٩/٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٦/٤).

على كل تقصير، ويطلب منهم التكاليف العسرة، ونسي أنه لما كان طالباً كان لا يطيق المعلم الفلاني لشدته، ويكره ذاك المعلم؛ لأنه لا يقبل العذر مع وجاهته!

وإن مما يدخل في هذا الباب فيما يتعلق بالتعليم في الجامعات؛ تشدد بعض الأساتذة وتصلبهم عند مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه؛ سواء في انقباض وجهه أثناء المناقشة، أو في قسوة لفظه عند إبداء الملحوظة، أو شدته عند إعطاء الدرجة، مع استحقاق الباحث لها، ونسي حالته الماضية لما كان يترقب مناقشة رسالته الماجستير أو الدكتوراه؛ فقد أمضى زماناً يسأل الله أن يهونها، وأن يكون موفقاً بالمناقشين ذوي السماحة واللين، ونسي خوفه ووجله الماضي وهو ينتظر إعلان نتيجته بعد مناقشة رسالته!

ومن ذلك أنه في البحوث المقدمة للتحكيم أو للفحص لأجل الترقية، يبدي بعض الأساتذة ملحوظاته بشدة لفظ، وخشونة تعبير، أو يبدي رأيه مباشرة بأن البحث غير مقبول، أو يفيد بأن ملحوظاته حتم على الباحث تغييرها؛ وإلا فإن البحث مردود، وملحوظاته لا تعدو أن تكون وجهة نظر، يسع فيها الاجتهاد والبحث والنظر، ونسي حالته الماضية لما غضب على ذلك المحكم الذي حكم بحته بنفس الشدة التي يتعامل بها هو الآن!

ومن ذلك أن يوافق الأستاذ على تحكيم بحث، أو

مناقشة رسالة، وهو يعلم ضيق وقته، وكثرة شغله، ومع ذلك يأخذ الرسالة، أو البحث، فيحبسها عنده زماناً، ومقدّم البحث والرسالة لا يزال ينتظر يعد الأيام والليالي؛ وذاك لم يفتح البحث بعد، ونسي حالته الأولى التي كان يرتقب فيها؛ متى يستلم نتيجة التحكيم لبحثه، ومتى سيكون الموعد لمناقشة رسالته!

ومما يدخل في الآية مما ذكره ابن عاشور - أيضاً - قوله: «كبار الموظفين في معاملة من لنظرهم»^(١) من صغار الموظفين»^(٢).

فكم من موظف كان شديد النقد لذاك المسؤول، كثير التبرم منه، ثم لما صار مسؤولاً نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وصار يتعامل مع الناس برسمية، ويتكلم معهم بفوقية، وهمّه - فقط - مصلحته الشخصية.

وإن مما يدخل في هذه الآية ما أشار إليه ابن عاشور أيضاً بقوله: «وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد، أو على الضجر من الآلام»^(٣).

فلا ينبغي للكبار أن يتضجروا من لعب الصغار المعتاد،

(١) هكذا وردت، ولعل الصواب: مَنْ تحت نظرهم.

(٢) التحرير والتنوير (٤/٢٢٦).

(٣) المرجع السابق.

ولا أن يزجروهم عن اللهو المباح؛ فإنَّ زَجَرَهُم والتَضَجُّرُ منهم بسبب ذلك فيه عدم تقدير لهذه المرحلة العمرية التي مرَّت على هؤلاء الكبار.

ومما يناسب ذكره هنا عن الإمام سفيان بن عيينة ما نقله أحمد بن النضر الهلالي قال: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس سفيان بن عيينة، فنظر إلى صبي، فكأن أهل المسجد تهاونوا به لصغره، فقال سفيان: «كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم»^(١).

ومن لطيف ما يذكر في ذلك ما ذكره البهاء المقدسي قال: «كان عندنا صبيان يشتغلون على الموفق ابن قدامة، وكانوا يلعبون بعض الأوقات إذا خلوا، فشكى بعض الجماعة إلى الشيخ أبي عمر - أخي الموفق - فقال: أخرجوهم من عندنا، ثم قال: هؤلاء أصحاب الموفق، فاذكروهم له، فقالوا له، فقال الموفق: وهل يصنعون إلا أنهم يلعبون؟ هم صبيان لا بد لهم من اللعب إذا اجتمعوا، وإنكم كنتم مثلهم»^(٢).

فللَّهِ در هذا الموفق، على جوابه الموفق، وما أجمل أن يجتمع فقه العلم، وفقه الأخلاق!

ويدخل في الآية أيضاً الأغنياء؛ فكم من إنسان أغناه الله

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٤٥٩).

(٢) تاريخ الإسلام (١٣/٦٠١).

بعد فقر، فصار جامد الكف، مصروفاً عن المكارم، لا تندى يمينه في معروف، ولا تهتز كفه لمكرمة؛ ليس للفقير عنده مأوى، ولا لليتيم بابه ظل؛ فحاله كحال الأبرص والأقرع من بني إسرائيل؛ لما شفاهم الله، وبرأهم من مرضهم، وأغناهم بعد فقرهم، فطلبت منهم الصدقة فقال كل واحد منهم: «الحقوق كثيرة، إنما ورث هذا المال كابراً عن كابر!»^(١) فسخط الله عليهم.

والخلاصة أن تذكر الحالة الماضية الناقصة تجعل الإنسان الموفق يستشعر منّة الله عليه، فيكثر من شكره، ويترفق مع الناس في أسلوبه، ويلين معهم في خطابه، ويتأنى في أحكامه، ويعتذر لهم فيما يجوز فيه الاعتذار، ويغلب جانب الرحمة، والله الموفق.



(١) أخرج قصتهم البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

طبائع الأصحاب

لا يخلو المرء في هذه الحياة من أصحاب يأنس بهم،
ويأوي إليهم؛ يُصافيهُم الود، ويقاسمهم الإخاء، ويبث لهم
الشكوى.

وإن للصحبة الناجحة آداباً يحسن بالصاحب أن يفقهها،
وَيُمَثِّلُهَا واقعاً مع أصحابه؛ حتى تدوم الصداقة، وتستمر
العلاقة.

والناظر في السُّنَّة النبوية يجد فيها آداباً في الصحبة مبثوثة
في ثنايا الأحاديث، وتفاصيل القصص، وسيكون الحديث هنا
على حادثة وقعت للنبي ﷺ مع أفضل أصحابه وخاصتهم؛ أبي
بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم.

تحكي الموقف عائشة رضي الله عنها فتقول: «كان رسول الله ﷺ
مضطجعاً في بيتي، كاشفاً عن فخذه، أو ساقه، فاستأذن أبو
بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن
عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان،
فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما
خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتَشَّ^(١) له، ولم

(١) من الهشاشة، وهي الخفة والاهتزاز والنشاط عند لقاء من يفرح =

تُبَالِه^(١)، ثم دخل عمر فلم تهتَشْ له، ولم تُبَالِه، ثم دخل عثمان فجلست وسوّيت ثيابك فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»^(٢).

وفي رواية أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابس مِرط^(٣) عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، ف قضى إليه حاجته، ثم انصرف، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحال ف قضى إليه حاجته، ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» ف قضيت إليه حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإنني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إلي في حاجته»^(٤).

ومن فوائد الحديث فيما يتعلق مع الأصحاب:

١ - أن الحاذق مع أصحابه هو من يفهم طبائعهم، فيعاملهم بحسبها؛ فطبيعة عثمان رضي الله عنه الحياء؛ فراعى

= بلقائه. ينظر: المفهم (٢٦٣/٦).

(١) أي: لم تعتن بأمره. ينظر: المفهم (٢٦٣/٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٣) بكسر الميم، وهو كساء من صوف... وقال ابن الأعرابي، وأبو زيد: هو الإزار. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦٩/١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٠٢).

الرسول ﷺ هذا الخلق الكريم، فلم يقابله بشيء كان معتاداً عند صاحبيه ﷺ .

وفي ذلك يقول القرطبي: «الحديث دليل على جواز معاشرة كل واحد من الأصحاب بحسب حاله، ألا ترى انبساطه، واسترساله مع العمرين على الحالة التي كان عليها مع أهله، لم يغير منها شيئاً، ثم إنه لما دخل عثمان غير تلك التي كان عليها، فغَطَّى فخذه، وتهياً له»^(١).

فتلقى في الأصحاب من هو سهل الأخلاق، وتلقى فيهم من هو جافي الطباع، وفيهم من هو رُحْب الصدر، وفيهم من هو سريع الانفعال، وفيهم خفيف الظل الذي يأنس بالمزح، وفيهم الخجول الذي يثقل عليه المزح؛ وفيهم طباعهم، ومعاملتهم بناء على ذلك، من أعظم الأسباب في دوام صحبتهم، واستدامة مودتهم.

ومن الخطأ في ذلك معاملة الإنسان لأصحابه حسب طبعه هو؛ لا حسب طباعهم؛ فإن هذا مدعاة إلى أن يفقد ودادهم؛ بل قد يخسر صحبتهم؛ فقد يكون بعض الأصحاب ريحاً مرسله في المروءة والشهامة؛ فمن تمام عقل هذا الرجل الشهم ألا يحمل أصحابه على مروءته الكبيرة، وشهامته الجزلة، وكرمه الفيّاض.

(١) المفهم (٦/٢٦٣).

٢ - أن من أراد استيعاب أصحابه؛ واستدامة مودتهم، وتقوية العلاقة بهم، فلا ينبغي له أن يتطلب أن يكونوا سواء في الأخلاق والطبائع؛ فهذا بعيد المنال؛ إذ التباين بينهم غالب.

فهذه كمالات ومناقب تميز بها أصحاب النبي ﷺ بعضهم عن بعض؛ فمنقبة عثمان رضي الله عنه الحياء، ومنقبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما شدة أنسه عليه السلام بهما.

ومن خطأ المرء مقارنته صاحباً بصاحب؛ لأنه إذا قارن صاحباً بصاحب، فسيخسر أحدهم مع الأيام؛ بل الحاذق مع أصحابه من ينظر إلى مواطن الكمال عند كل صاحب؛ فهذا صديق الروح، وهذا صديق العمل، وهذا صديق كثير البر والحياء، وهذا ذو رأي حسن، وهذا غزير الفائدة، موفور العائدة، وهذا طيب السريرة؛ وهذا حسن الخدمة؛ فتغافل عن نقص أصحابك، واستمتع بكمالاتهم، تستدم علاقتهم، وثبتت مودتهم.

٣ - أن من أعلى درجات الصحبة أن تأنس بصاحبك؛ فتلقاه بدون احتشام ولا تكلف؛ وهكذا كان الرسول ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فهما أفضل أصحابه وخاصته؛ ففي هذا الحديث منقبة لهما؛ ولذا قال ابن هبيرة: «الحديث يدل على فضيلة أبي بكر وعمر، وشدة أنسه عليه السلام بهما»^(١).

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/٢٤٠).

وقد علّق المظهري على الحديث بقوله: «قاعدة المحبة إذا كملت واشتدت ارتفع التكلف، كما قيل: إذا حصلت الألفة بطلت الكلفة»^(١).

وهذا الذي تمناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بقوله: «ما بقي شيء من لذات الدنيا إلا وقد نلته إلا شيئاً واحداً؛ أخاً أرفع مؤنة التحفظ منه»^(٢).

٤ - أن الصديق الناجح هو من يحسن الاستماع إلى أصحابه، وهم يبدون له حاجاتهم؛ حتى يتمكن من قضائها؛ فتأمل في قول النبي ﷺ: «إني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إليّ في حاجته» فكم في هذا التعبير النبوي من الزكاء واللفظ والمروءة!

٥ - أن من توفيق الله للرجل أن يكون ملاذاً لأصحابه؛ يفرعون إليه فيما استشكل عليهم من حاجاتهم، وضائق به حيلهم؛ يجدون عنده محض النصيحة، وسداد الرأي، وقضاء الحاجة.



(١) المفاتيح شرح المصابيح (٦/٣٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣٥٢).

أخطأ فلان

الخطأ من طبيعة الإنسان، ولا يسلم منه إلا من عصمه الله من أنبيائه ورسله، و«لكل الناس نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضلون بكثرة المحاسن، وقلة المساوئ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ، دقيقتها وجليلها، ظاهرها وخفيها، فهذا لا يعرف فيهم»^(١).

وهذا الأمر معلوم عند الناس، متقرر لديهم؛ لكن عند التطبيق يفشل كثير منهم في اعتباره وإعماله؛ فتراه يتعامل مع الآخرين بالمثالية التي لم يبلغها مع نفسه؛ فيشنع عليهم بالزلة، ويحاسبهم على الهفوة، ومن تطلب المثالية والكمال في الناس، فقد رام محالاً، وطلب ممتنعاً، ومبتغي ما لا يكون، مكدودٌ مُعنى على ما قال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فعرشٌ واحداً أو صلُّ أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبه^(٢)

وفيما يأتي ذكرٌ لأمثلة لهذا الداء:

(١) ينظر: مجموع الرسائل للجاحظ (ص ٢٠١).

(٢) ديوان بشار بن برد (١/٣٠٥).

يمضي العالم عمره في نشر العلم تأليفاً وتدریساً، ويأتي منه الخطأ مرة في فتوى أو تأليف، فيحاسب على عدم الصواب، ويغلظ معه في الخطاب، دون اعتبار لماضيه الجميل، وعطائه المشرق!

ويقطع المعلم من عمره سنين متطاولة موجهاً ومريئاً، ثم يقع منه الخطأ، فينسى المجتمع عمره التعليمي، ويغفل عن جهده التربوي، ويحصر تاريخه بهذا الخطأ!

ويكون الرجل إماماً أو خطيباً أعواماً عديدة، منضبطاً في أوقاته، محافظاً على صلاته، مفيدة خطبته، ظاهرة فصاحته، فيحصل منه الخطأ مرة في صلاته، أو خطبته، فيتروى الناس خطأه، وينسون انضباطه وإتقانه!

ويكون الصديق مع صديقه محمود الفعال، جم المحامد، فيقع منه التقصير مرة، فينتبذ عنه صاحبه مكاناً قصياً، ويتخذاه وراءه ظهرياً.

ويكون الأخ مع إخوته ذا خير وأفضال؛ فتصير منه بعض الأخطاء؛ فيحاسبه إخوته ويهجرونه، ومعرفة السابق لا يعتبرونه.

وتكون الزوجة مع زوجها حسنة السيرة، طيبة السريرة، فيقع النقص منها مرة، فيعزم الزوج على هجرها الهجر المبين، ويقسم على ذلك باليمين.

وهذه الأفعال تجافي قواعد الشرع، وتخالف ميزان العدل، وتجانب أصول الإنصاف.

ولقد قال الإمام ابن حزم كلمة شافية في علاج هذا الداء، فقال: «من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وجه تعسفه»^(١).

نعم تصور نفسك أنك وقعت في خطأ مرة؛ فهل تود حينها أن يغلظ معك في الخطاب، ويهجرك الأصحاب؟
ولقد أعطانا الرسول ﷺ قاعدة في التعامل مع أخطاء الناس، فقال: «لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخِرُ»^(٢).

وهذا الحديث وإن كان وارداً في العلاقة بين الزوجين إلا إن التوجيه الذي يحمله يصلح تعميمه في التعامل مع من نخالطه من الناس من ولد وجار وصديق وزميل عمل.

وتأملوا في قصة الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي أخطأ فأرسل إلى كفار قريش كتاباً يخبرهم فيه بعزم الرسول ﷺ وأصحابه في التوجه إلى مكة لفتحها، فأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا

(١) الأخلاق والسير، لابن حزم (ص ٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩).

المنافق! فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

فأخبر ﷺ أنه شهد بدرًا، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من عقوبته ما له من المشهد العظيم، فوَقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات، على ما قال ابن نباتة المصري:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ^(٢)
فلا يُذكر في كتب التراجم والسير أن صحابيًا غير حاطبًا بهذا الذنب، وقد عاش سنين عددًا بعد موقفه هذا!
لقد أفلل ملف القضية بعد قول النبي ﷺ مباشرة.

وفي هذا يقول سيد التابعين سعيد بن المسيب: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب؛ ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أن من غلب عليه نقصانه ذهب فضله»^(٣).

وأكد هذا المعنى ابن القيم فقال: «من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته، وعظمت وكان له في الإسلام

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) ديوان ابن نباتة المصري (٣٤٢/١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤٨/٢).

تأثير ظاهر، فإنه يُحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قُلَّتَيْن لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه يحمل أدنى خبث يقع فيه»^(١).

وهنا حادثة حسنة في هذا الشأن حصلت للإمام أحمد مع المحدث الكبير الحميدي، يرويها الحميدي نفسه، فيقول: «كان أحمد بن حنبل قد أقام عندنا بمكة، على سفیان بن عيينة، فقال لي ذات يوم، أو ذات ليلة: هاهنا رجل من قریش، له بيان ومعرفة، فقلت له: فمن هو؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي، وكان أحمد بن حنبل قد جالسه بالعراق، فلم يزل بي حتى اجترّني إليه.

وكان الشافعي قُبالة الميزاب، فجلسنا إليه، ودارت مسائل، فلما قمنا، قال لي أحمد بن حنبل: كيف رأيت؟ فجعلت أتتبع ما كان أخطأ فيه - وكان ذلك مني بالقرشية؛ يعني: من الحسد - فقال لي أحمد بن حنبل: فأنت لا ترضى أن يكون رجل من قریش يكون له هذه المعرفة، وهذا البيان! تمر مائة مسألة يخطئ خمساً أو عشراً، اترك ما أخطأ، وخذ ما أصاب.

قال الحميدي: «وكان كلامه وقع في قلبي، فجالست

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٠٤).

الشافعي فغلبتهم عليه..»^(١).

فما أجمل كلمة الإمام أحمد: «اترك ما أخطأ، وخذ ما أصاب»؛ إذ الخطأ لا يسلم منه أحد، وما أسعد الحميدي لما أخذ بنصيحته؛ إذ لو استسلم لرأيه لفاته علم هذا البحر الزخار.

إن شيوع هذا المنهج في الناس سبيل لائتلاف قلوبهم، واجتماع كلمتهم، وأن يعذر بعضهم بعضاً، وأن يعامل بعضهم بعضاً بواقعية.

اللَّهُمَّ ارزقنا الإنصاف، وزينا بزينة الإيمان.



(١) آداب الشافعي ومناقبه (ص ٣٤).

النصيحة المفقودة

النصيحة خصلة طيبة، وفعلة كريمة، يقصد بها الناصح برَّ المنصوح، وإيصال الخير له، وهي من أعظم ما يبذل من وجوه الإحسان؛ إلا إن هناك قصوراً عند بعض الناس في معناها؛ فتجدهم يقصرون معنى النصيحة على إشعار الناس بأخطائهم، وإيقافهم عليها، وهذا حصر قاصر؛ فالنصيحة كما يقول الإمام ابن الصلاح: «كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلًا»^(١).

فقلوله: «وجوه الخير» يحوي معنى واسعاً، أحد معانيه إبداء النقد، وإن من معاني النصح التي ينبغي للناصح أن يتوخّاها في المنصوح أن يكون مع حرصه على تبليغه النقد الهادف أن يبلغه الشناء الصادق، وشاهد هذا قول النبي ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه»^(٢)، والمرأة تبدي المحاسن والمساوئ، خلافاً لقصر بعضهم الاستدلال بهذا النص على مجرد النقد، وبيان الخطأ فقط، وفي هذا الشأن إفادة حسنة عن الإمام أحمد

(١) صيانة صحيح مسلم (ص ٢٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والترمذي (١٩٢٩) وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (١٨٢/٢).

في ذلك يحكيها عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه فيقول: «جاء رجل إلى أبي فذكر أنه كان عند بشر - يعني: ابن الحارث -، فذكروه فأثنى عليه بشر، وقال: لا ينسى الله لأحمد صنيعه، ولولاه لهلكنا، قال عبد الله: ووجه أبي يتهلل، فقلت: يا أبت أليس تكره المدح في الوجه؟ فقال: يا بني إنما ذكرت عند رجل من عباد الله الصالحين، وما كان مني فحمد صنيعي، وقد قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه»^(١).

فالإمام أحمد يستدل على ثناء الحارث بحديث: «المؤمن مرآة أخيه»، وهذا يؤكد ما نحن بصده؛ وهذا المعنى مفقود في ممارسات بعض الناس، فتلقى الواحد منهم لا يُعرف إلا بالنقد فقط، ظاناً أنه بذلك أنه قد أدى ما عليه، ولذلك أمثلة:

تجد بعض الناس يعيش في بيته لا يسمع منه أولاده، ولا زوجه كلمة ثناء واحدة، وإنما يعرفون منه الأوامر والنواهي، والنقد واللام!

وتلقى بعض المديرين لا يعرف الموظفون والمعلمون معه سوى الشريب والتأنيب، وإبداء الملحوظات والعيوب!

وتجد بعض المعلمين يمر عليه الطلاب تلو الطلاب، لا يُذكر أنه أظهر محامد طالب، أو أشاد بأداء مجتهد، أو أبدى موهبة موهوب، وإنما سبيله معهم اللوم والتقريع!

وفي جانب مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه تجد من منهج بعض المناقشين أنه لا يبرح ينبّه على أخطاء الباحث، ويظهر مساوئه، دون أن يذكر له حسنة واحدة!

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ يجد أمثلة مشرقة في جمعه ﷺ بين الثناء الصادق، والنقد الهادف.

فنبينا ﷺ الذي قال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه: «يا معاذ أفتان أنت»^(١)، هو الذي قال: «أعلم أمتي بالحلal والحرام معاذ»^(٢)، وهو الذي قال: «يا معاذ والله إني لأحبك»^(٣).

ونبينا ﷺ الذي قال لخالد بن الوليد رضى الله عنه لما أخطأ في قتل بني جذيمة: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(٤) هو الذي لقّب «سيف الله»^(٥).

ونبينا ﷺ الذي عاتب أسامة بن زيد رضى الله عنه عتاباً شديداً لقتله ذلك الرجل الذي قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه أسامة السلاح^(٦)، لم يمنعه من أن يعلن أنه من أحب الناس إليه بعد

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٩١)، والنسائي في الكبرى (٨٢٨٧)، وابن ماجه (١٥٤)، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٧).

(٦) أخرجه مسلم (٩٦).

أبيه^(١)، وأن يؤمّره على الجيش في آخر حياته ﷺ^(٢).

وإن الجمع بين هذين الأمرين سبيل لقبول المنصوح ما يوجّه إليه من نقد؛ بل هو من الحكمة التي يؤتيها الله من شاء من عباده في النقد؛ وقد قال الرسول ﷺ: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل» فكان ابن عمر رضي الله عنه بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

فالنبي ﷺ أثنى عليه أولاً، ثم أرشده آخرًا.
اللهم اهدنا، وسدّد ألسنتنا.



(١) أخرجه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥٠)، ومسلم (٢٤٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩).

التغافل شِيمة الأفاضل

إن الله - جل في علاه - خلق الإنسان، مدنيّاً بالطبع؛ يؤثر الاجتماع على العزلة، فلم يوجدّه في جوف مغارة، ولا في زاوية صومعة، ولا على رأس جبل؛ بل أوجده مخالطاً بني جنسه؛ وإن من لازم هذه المخالطة أن يقع الجهل من الناس بعضهم على بعض.

وإنه ليحسن بالعاقل أن يكون ذا أناة، فلا يعجلُ بالمحاسبة على كل خطأ في حقه؛ فإنه إذا عاتب على كل هفوة، وحاسب على كل جفوة، أوشك أن يعيش وحيداً، كما قال كثير عَزَّه:

ومن يتتبعَ جاهداً كلَّ عثرةٍ يجدها ولا يسلم له الدهرَ صاحبٌ^(١)

بل عليه أن يسلك مسلك التغافل، فهو السبيل لعلاج كثير من المشاكل، وإن من شيم النفوس الطاهرات التغافل عن الزلات؛ إبقاء على الود، وحفظاً للعلاقات.

ولقد كان نبينا ﷺ يتمثل هذا الأمر على أحسن وجوهه؛ ففي قصة زوجتيه اللتين تظاهرتا عليه يقول الله - تعالى -:

(١) عيون الأخبار (٣/٢١).

﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣]؛ أي: لم يعاتبها في الحديث كله، إنما عاتبها في بعضه، ولم يسرُد لها الأخطاء كلها تَكْرَمًا^(١).

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال لي: أفأ قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا»^(٢).

والتغافل هو مسلك الأكابر والأفاضل؛ فهم لا يستقصون، ولا يحصون؛ بل يتغاضون، ويعرضون، يقول الحسن البصري: «ما استقصى كريم قط»^(٣)، والناس لا يحبون الذي ينقر أخطاءهم تنقيراً، ولا يزال يذكرهم بها تذكيراً.

وليس من التربية في شيء أن يحاسب الأب زوجته وأولاده على كل زلّة، وليس نجاحاً أن يحصي المدير خطأ موظفيه كلّهُ، وليس تمييزاً أن يعدّ المعلم أخطاء تلاميذه عدداً، وليس صديقاً من يرصد أخطاء أصحابه رصدًا.

وإن مما يعين على العمل بالتغافل تذكير النفس بأن الكمال عزيز، ولن تجد أحداً إلا وفيه صفاء وكدر، فلا ترج شيئاً خالصاً نفعه، فانهل من صفو صاحبك، وتعام عن كدره، لسان حالك:

(١) تفسير القرطبي (١٨/١٨٧)، والبرهان، للزركشي (١/٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/١٨٧).

إِذَا أَدَمْتُ قَوَارِصُكُمْ فَوَادِي صَبَرْتُ عَلَى أَذَاكُمْ وَانطَوَيْتُ
وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ طَلَقَ الْمُحْيَا كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ ^(١)

وما أجمل قول أبي تمام حين قال:
ليس الغبيّ بسيدٍ في قومه لكنَّ سيدَ قومه المُتَغَابِي ^(٢)

وأجاد دُعبل حين قال:
تخال أحياناً به غفلةً من كرم النفس وما أعلمه ^(٣)!

ويقول عثمان بن زائدة، قلت للإمام أحمد: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل، فقال: «العافية عشرة أجزاء كلها في التَّغَاوُل» ^(٤)؛ ولذا فقد نجح هذا الإمام في علاقته مع أهله، فمرة ذكر زوجته المتوفاة، فترحم عليها وقال: «مكثنا عشرين سنة، ما اختلفنا في كلمة» ^(٥).

ويتأكد التغافل مع من له حق عليك كالوالدين ونحوهم، فإذا سمعت منهم ما تكره فلا تستعجل بالرد والخصومة؛ بل الزم التغافل والتغاضي، واقتد بيوسف عليه السلام لما اتهمه إخوته بالسرقه لم يزد على أن قال في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] فكسبهم، وفاز بالظفر.

(١) بلا نسبة في الدر الفريد (٢/٢٧٥).

(٢) ديوان أبي تمام (ص ١٥٤).

(٣) ديوان دُعبل (ص ٢٧٣).

(٤) الآداب الشرعية (٢/١٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (١١/٣٣٢).

كما يتأكد التغافل مع أولئك القوم الذين يقعون فيك دون سبب إلا الحسد والبغضاء، فلا تقابلهم بجهلهم؛ بل اعمل معهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كان هدي نبينا ﷺ، فقد كان يسمع كلمات خشنّة تنبو عنها الأسماع، وتنفر منها الطباع، فلم يكن يقابل قائلها بمثلها، يقول أنس رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك»^(١).

ما أعظم حلم نبينا، وما أزكى نفسه، وما أكرم خلقه، يخاطبه رأس المنافقين بهذا الطيش، فيثبت ﷺ، لم يستخفّه سفهه، ولم يستشره منطقه؛ بل أعرض عنه، ولم يجبه.

إذن فلا تستعجل بالرد على من جرحك أو لمزك؛ بل اسكت؛ فسكوتك يحزنه، وإعراضك يقتله كما قال الإمام الشافعي:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهَ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَجَّتْ عَنْهُ وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ^(٢)

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩).

(٢) ديوان الشافعي (ص ٣٨).

وإنه ليتعين التغافل عن الخطأ الذي لم يقصده صاحبه؛
فإن هذا هو عين الحكمة والمصلحة.

ومن مستحسن ما يذكر هنا ما جاء عن الخليفة الأموي
عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنه دخل مرة المسجد في ليلةٍ
مُظلمة، فمرَّ برجل نائم فعَثَرَ به، فرفع الرجلُ رأسه وقال:
أمجنون أنت؟ - وما علم أنه أمير المؤمنين -، فقال عمر: لا،
فهَمَّ به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألتني أمجنون؟ فقلت:
لا»^(١).

فهذا من التغافل الذي يعد في أعلى درجات المكارم،
ولو أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَقَّقَ وفتَّشَ مع هذا القائل لعظم الخصام، وطال
المقام، ولكنه أعرض فانتهى الموقف بسلام.
وزبدة القول أن من لزم التغافل مع الناس عاش سالماً،
والقول فيه جميل، ومن تتبع الأخطاء، صار مع الناس في
بلاء، ومع نفسه في شقاء.



الاعتذار خلق الكبار

يحسن بالعاقل الفطن إذا وقع منه الخطأ على الآخرين أن يبادر بالاعتذار؛ فلكل ذنب كفارة، وكفارة الخطأ على الآخرين هو الاعتذار منهم، كما قيل:

قيل لي قد أسأ إليك فلانٌ ومُقامُ الفتى على الضيم عارٌ
قُلْتُ قد جاءنا فأحدث عُذراً دية الذنب عندنا الاعتذار^(١)

وإن من أشق شيء على الإنسان أن يعترف بخطئه على الآخرين، فقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، لا يخلو من الكبر والبغي والاستطالة إلا من رحم الله.

وإن اللبيب الموفق مَنْ إذا أخطأ على إنسان بادر واعترف، وتأسف واعتذر؛ وأظهر الندم الصادق، وأثر ذل الدنيا على عذاب الآخرة.

وإن الاعتراف للآخرين بالخطأ، والاعتذار إليهم يُذهب الهموم، ويدفع الحقد، ويبعث على الطمأنينة، وَيَشْدُ حبل المودة.

وإنك حين تعتذر؛ فإنه لا يعني بالضرورة أنك مخطئ؛

(١) نسبه في الدر الفريد (٨ / ٣٨١)، لابن المعتز.

بل يعني أنك تنازلت عن حقك؛ مراعاة لقريبك الأكبر، أو أستاذك الأجل، أو صديقك الأعز، وهذا دليل شهامة، وكمال مروءة، كما قيل:

خيرُ الخليلين من أغضى لصاحبه ولو أراد انتصاراً منه لانتصرا^(١)

وإن أكمل الاعتذار وأبلغه أن يقع الخطأ منك واضحاً على من هو أضعف منك من ولد وزوج وخادم وتلميذ، ثم تعلنها صريحة أمامه قائلاً: لقد أخطأت بحقك فسامحني. فمن قالها فهو يملك شجاعة أدبية، وأخلاقاً رضية.

ومن استنكف عن قولها، وجمع إلى هواه، فلم يبذل اعتذاراً، ولم يطلب غفراناً، ففي نفسه لوثة كبر خفية.

وما أوقع الوحشة في نفوس بعض الناس حين يقع بينهم الخطأ إلا استنكاف الخاطئ عن الاعتراف بخطئه، وامتناعه من الاعتذار ممن جهل عليه، فيحلُّ في القلوب السخيمة والشنان، وتقع القطيعة والهجران.

إن ذلك الإنسان الذي يخطئ على الناس، ويصر على الخطأ، ثم لا يهتُمُّ بالاعتذار، فضلاً أن يبادر به، فهذا إنما يكشف عن نفسه الموبوءة المريضة؛ ويجني عليها:

فمن هابَ الرِّجالَ تهَيَّبُوهُ ومَن حَقَرَ الرِّجالَ فلن يُهابا^(٢)

(١) نسبه في تاريخ دمشق (٤٣٧/٤٧) إلى يزيد بن محمد بن المهلب.

(٢) البيت للحسين بن مطير كما في غرر الخصاص الواضحة (ص ٢٤).

وإن من أقبح شيء في ذلك أن يجهل أحدهم على الآخرين جهلاً بيّناً، ثم يتمادى في جهله، فيرفع عقيرته بأنه صاحب الحق.

ومن أمثلة ذلك أن يقع بين مدير وأحد موظفيه موقف، يكون الموظف فيه صاحب الحق، ولكن تأبى نفس المدير الاعتراف بالخطأ، فإذا كان هذا المدير دنيء النفس وشئ به عند صاحب القرار، حتى توقع عليه العقوبة، ونسي هذا المدير بأن على الباغي تدور الدوائر.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن تسير في سيارتك في المسار الصحيح، ثم يعترض عليك أحدهم بسيارته خطأ، فإذا جاوزته نظر إليك نظرة المكسور المظلوم، وتلفظ عليك كأنك المخطئ الظلوم!

عجبتُ له يُجني ويصبُحُ عاتباً فواعجباً من ظالمٍ يتظلمُ^(١)

واللييب الموفق من إذا ظن أنه جرح أحداً من الناس، فإنه يبادر بالاعتذار، وبيان الأمر؛ وهكذا كان يفعل نبينا محمد ﷺ فقد أهده الصعب بن جثامة حماراً وحشياً وهو بالأبواء، فردّه عليه رسول الله ﷺ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرْمٌ»^(٢).

(١) البيت لصفي الدين الحلي كما في ديوانه (ص ٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٩٣).

وهذا من حذقه ﷺ في قراءته للنفوس، فإنه لما رأى تغير وجه الصعب حين رد هديته، بادره وطيب خاطره ببيان العلة في رد هديته، وهذا الحديث من الأحاديث الأصول في مراعاة مشاعر الناس.

والذي ينبغي للمسلم أن يكون صادقاً في عذره، فإن لم يكن هناك عذر واضح، فليعترف بزلاته، ويطلب العفو، ولا يتكلف الأعذار، كما قال محمود الوراق:

إذا كان وجهُ العذر ليس بيّنٍ فإنَّ أطراحَ العذر خيرٌ من العذرِ^(١)

ويتأكد في حق من اعتذر منه أن يقبل العذر، وينأى عن الملام؛ فالعذر عند كرام الناس مقبول، حتى ولو كان وجه العذر ليس ظاهراً؛ تأسيساً بالنبي ﷺ؛ فإنه لما جاءه المخلفون عام تبوك، وطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، قبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وهو مع ذلك لا يصدق أحداً منهم؛ بدليل أنه لما جاءه كعب بن مالك رضي الله عنه وأخبره بحقيقة أمره، قال: «أما هذا فقد صدق»^(٢).

وقد قال الشافعي:

اقبل معاذيرَ من يأتيك مُعتذراً إنْ برَّ عندك فيما قال أو فَجَراً
فقد أطاعك من يُرضيك ظاهرُهُ وقد أجلك من يعصيك مستتراً^(٣)

(١) الكامل للمبرد (١٢٣/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠)، ومسلم (٧١٦).

(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص ٦٠).

وإن مما يزعج النفوس، وتضيق به الصدور، أن تسمع عن ضغينة بين أخوين، أو أختين، أو موظفين، أو جارين، ثم يبادر أحدهما الآخر بالاعتذار، ويطلب فتح صفحة جديدة، والآخر يأبى ويصر!

أليس لهذا الذي رد الاعتذار قدوة بيوسف عليه السلام وقد قال له إخوته: ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ [٩١] ﴿يُوسُفُ: ٩١﴾ فأجابهم مباشرة: ﴿لَا تَزِرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٩٢] ﴿يُوسُفُ: ٩٢﴾ ولم يستعرض تاريخهم الأسود معه؛ بل عفا وصفح؛ وهذا غاية الكرم.

يقول الحسن بن علي: «لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره»^(١).

إن الحياة قصيرة، لا تستحق كل هذا الإصرار، والتعنت في قبول الاعتذار!

وإن مما يقوّي المسلم في قبول عذر أخيه، استشعاره أنه ربما احتاج لمثل هذا الموقف الذي وقفه أخوه أمامه، فهل يسره حينها أن يُردَّ خاسئاً وهو حسير؛ فكما تدين تدان.

فما أجمل ذلك الأب الذي لما أتاه ابنه يلقي معاذيره، قبل عذره، وبرّاه من الملام، وأسبغ عليه عبارات الحب والقبول.

وأكرم بذاك الزوج الذي لما اعتذرت إليه زوجه من التقصير، نفّض عنها غبار اللوم، ووجد لها في ذلك عذراً بيناً، ووارها بلباس الصفح والستر.

ولله در ذاك الصديق الذي لما أتاه صاحبه معتذراً إليه من هفوة فرطت، أو سقطت بدت - بادره بقبول عذره، وهوّن عليه، بألاً يخاف دركاً ولا يخشى.

ولله ذاك المدير الذي لمّا جاءه أحد موظفيه معترفاً بزلته، معلناً توبته، ملقياً معذرتة، قبل عذره، وعفا عنه، وأعانته على التوبة.



فهلّا نملة واحدة

النقد إذا أعملت شروطه دواء ناجع، وبلسم شاف، في إصلاح الأفراد والمجتمعات، لكن ثمت ظاهرة سوء لا تزال تشيع في مجتمعاتنا، ألا وهي ظاهرة التعميم في النقد، ومجاوزة محلّ الخطأ، فبينما يرى الناقد مُصلحاً ناصحاً إذ به ينقلب باغياً معتدياً، والنفس البشرية لها طرائق تميل بها مع الهوى، ومسارب تنفذ خلالها نحو الهلاك، وصاحبها يحسب أنه يحسن صنعاً، وهو قد أساء واعتدى وظلم، وإن لهذه الظاهرة أحوالاً منها:

حينما يقع الخطأ على أحد الناس؛ فترى من وقع عليه الخطأ لا يكتفي بنقد هذا الجاهل الذي أخطأ، وإنما يُعديّ النقد إلى عائلته أو قبيلته كلها، وربما اشتطّ كثيراً فقال: لا يأتي من هذه القبيلة خير.

وتكون لأحدهم الحاجة في إحدى دوائر العمل، فيصادف موظفاً غليظ الخُلُق، سيء المعاملة، فتراه يخرج من هذه الدائرة، يشتم موظفيها لا يستثني أحداً.

وأعجب من ذلك أن بعضهم يزور مدينةً، فيوافق جاهلاً من أهلها، فيعمم الجهل على المدينة كلها!

ويرتكب الشاب الذنب، ثم يتوب وتصلح حاله، فلا يزال بعض الناس لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، يعامله بحاله الأولى.

وتقع الهفوة من بعض الطلاب، فيعمُّ المسؤول الطلاب كلَّهم بالعقوبة.

وأقبح من هذا كله إذا وقع خطأ ممن يحسب على أهل الدين والصلاح، فتري من في قلبه مرض مهطعاً، يصمُّ أهل الدين بالعار والشنار.

وهذا كله تعدُّ على الخلق، وجورٌ عن العدل، وميلٌ عن الجادة، والله - سبحانه - يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ويقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

والمتأمل لهدي النبي ﷺ في علاج الخطأ، يجد أنه ﷺ يقصر النقد واللام على المخطئ والخطأ فقط؛ فمما ورد عنه في ذلك:

- إرشاده ﷺ إلى محاصرة الخطأ بقصر الملام والنقد على المخطئ، وعدم مجاوزته إلى غيره من أقاربه؛ فقد روت عائشة رضي الله عنها أن حسان استأذن النبي ﷺ في هجاء المشركين. فقال النبي ﷺ: «كيف بنسبي؟» فقال حسان: لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣١)، ومسلم (٢٤٩٠).

- وكذلك ورد عنه عليه السلام النهي عن تجاوز النقد عن المخطئ إلى القبيلة كلها؛ فقد روت عائشة - أيضاً - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أعظم الناس فريةً لرجلٍ هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها»^(١).

- وكذلك ورد عنه عليه السلام النهي عن تجاوز العقوبة عن المخطئ إلى القرية كلها؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه، فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاً نملةً واحدةً»^(٢)^(٣).

وفي رواية: «فأمر بقرية النمل فأحرق»^(٤).

ومعنى: «فهلاً نملة واحدة»؛ أي: هلاً عاقبت نملةً واحدةً هي التي قرصتك؛ لأنها الجانية وأما غيرها فليس لها جناية^(٥).

- ومما ورد عنه عليه السلام في ترك التعميم في النقد إنكاره صلى الله عليه وسلم على من أخطأ في قوله فقط، مع اعتبار أقواله الأخرى، تقول

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٦١) وصححه البوصيري (١٢٣/٤).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣٥٨/٦): «النصب على تقدير عامل محذوف تقديره: فهلاً أحرق نملة واحدة».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤١).

(٥) شرح النووي لصحيح مسلم (٢٣٩/١٤).

الرَّبِيع بنت مُعَوِّذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دخل عليَّ النبي ﷺ غداة بُني عليَّ، فجلس على فراشي، وجويريات يضربن بالدُّفِّ يَنْدُبْنَ من قُتِلَ من آبائهن يوم بَدْرٍ، حتى قالت جارية: وفينا نبي يَعْلَمُ ما في عَدٍ. فقال النبي ﷺ: «دعي هذه، وقولي بالذي كُنْتَ تَقُولِينَ»^(١).

فقد أخطأت هذه الجارية بدعواها أن النبي ﷺ يعلم الغيب؛ فنهاها عما فيه الخطأ فقط، ولم يعمم النهي على قولها كله؛ بل قال لها: «قولي بالذي كنت تقولين».

- ومما ورد عنه ﷺ في ترك تعميم النقد في الأفعال عقوبته ﷺ على من أنكر في فعله فقط، مع اعتبار أفعاله الأخرى؛ فقد روى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتى به يوماً فأمر به فجُلِدَ، فقال رجل من القوم: «اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به!» فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت. إنه»^(٢)

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٧).

(٢) قال العكبري في إتحاف الحثيث بإعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث (ص ٢١٧): «في المعنى وجهان: أحدهما: هو أن «ما» زائدة؛ أي: فوالله علمت أنه. والهمزة على هذا مفتوحة لا غير.

والثاني: ألا تكون زائدة، ويكون المفعول محذوفاً، أي: ما علمت عليه أو منه سوءاً، ثم استأنف فقال: إنه يحب الله ورسوله، فالهمزة على هذا مكسورة»، وينظر: فتح الباري (٧٩/١٢).

يحب الله ورسوله»^(١).

فهذا الصحابي وقع منه فعلٌ هذه الكبيرة، وتكرر منه ذلك، وهذا لا يعني إبطال أفعاله كلها؛ فعنده من خصال الإيمان ما يوجب موالاته: «إنه يحب الله ورسوله».

ومما يدخل في مظاهر هذه العادة السيئة أن يسارع المرء إلى معاداة جميع خصماء قريبه أو صديقه أو شيخه نصرةً لهم وفزعة، دون روية ولا تأمل، ومن غير دليل يثبت صحة المعاداة، والتقليد في البغض شأن المغفلين.

ولله درُّ الإمام أحمد، فقد حدَّث عنه المروزي فقال: «وقع بين عم أبي عبد الله وجيرانه منازعة، فكانوا يجيئون إلى أبي عبد الله فلا يظهر لهم ميله إلى عمه، ولا يغضب لعمه، ويلقاهم بما يعرفونه من الكرامة»^(٢).

إن الناقد الحاذق كالطبيب الماهر، لا يتجاوز مكان الألم في العملية، فلا يعمم في النقد، ولا يقول زوراً، ولا يفترى ظلماً؛ فبذلك يعيش مسدد اللسان، طيب الأردان، والموفق من وفقه الله^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) الآداب الشرعية (٥/٢).

(٣) ربما استدل بعض الفضلاء على عدم التعميم بما جاء في صحيح مسلم (٢٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم»، وهذا الاستدلال محل =

حين يوفي الأستاذ أمانة الإشراف

كنت طالباً في المستوى الرابع من كلية الشريعة، وقد جرت العادة في هذا المستوى أن يُقرَّر على الطالب البحث العملي، وكانت الكلية قد وضعت بحث هذا المستوى في تخصُّص التفسير، وعيَّنت فضيلة الشيخ أ.د. سليمان السليمان رحمته الله مشرفاً على جزء من الطلاب، كنت أحدهم، فرأينا من الشيخ جِداً في الإشراف، ونصحاً في الإرشاد، ودقَّة في النقد.

وكان البحث أول بحث أكاديمي يمر بي، وكان قُبيل خروج البرامج الحاسوبية، فكنت أعاني في جمعه جهداً ناصباً، فلا غَرْوَ أن يعتري البحث القصور في جمعه وترتيبه، ومراجعته

= نظر، فقد قال ابن عبد البر في التمهيد (١٤٢/٢١): «معناه عند أهل العلم: أن يقولها الرجل احتقاراً للناس، وإزراءً عليهم، وإعجاباً بنفسه، وأما إذا قال ذلك تأسفاً وتحزناً وخوفاً عليهم؛ لقيح ما يرى من أعمالهم، فليس ممن عني بهذا الحديث، والفرق بين الأمرين أن يكون في الوجه الأول راضياً عن نفسه، معجباً بها، حاسداً لمن فوقه، محتقراً لمن دونه، ويكون في الوجه الثاني ماقثاً لنفسه، موبخاً لها غير راضٍ عنها» وينظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧٥/١٦).

ومسائله، وقد أنهيته مكتوباً بخط يدي في خمس وخمسين ورقة؛ والورقة فيها ما يقارب ثلاثين سطراً، قد رُصف بعضها إلى بعض، فأشهد أن الشيخ رحمته الله استبطن دخائل هذا البحث، واستقرى دقائقه، وتفحصه حرفاً حرفاً؛ فنبّه على الهمزة الساقطة، والمدّ المغفل، وبَيّن الكتب التي رجعت إليها بواسطة، وقلّب الفهارس ظهراً لبطن، فبيّن السّقط في أسماء الكتب، وكان من ضمن ملحوظاته أن راوياً مهملاً أخطأت في تعيينه؛ فنبهني على الصواب، فأحسب أن الشيخ رحمته الله قد وقّى أمانة الإشراف، وكان هذا البحث باكورة بحثي، فأفدت من الشيخ رحمته الله حسن التحرير، ودقة البحث، ولا زلت محتفظاً بهذا البحث.

ومن العجائب أني ذكرت لشيخنا سليمان هذا البحث قبل وفاته بسنة، وشكرته على دقته، واستقرائه له، فجعل الشيخ يلوذ بالتواضع، ثم قال لي: أتذكر الراوي فلان - يعني: الراوي الذي أخطأت في تعيينه - فتعجّبت من هذه الذاكرة الحاضرة، وقد مضى على البحث عشرون عاماً.

وفي مستوى آخر في الجامعة تأتينا مادة البحث، فيوضع أحد الأساتذة مشرفاً علينا، فبذلت في البحث الجهد، واستفرغت فيه الوسع، وأمضيت فيه الوقت، ثم سلمته إلى المشرف، وكنت أرتقب رأي المشرف وتسديده، فكنت أرجع إليه مرة بعد أخرى، فكان يفيد بأنه لم يقرأه بعد، حتى إذا

خرجت الدرجة، وإذا هي ليست الدرجة المؤمّلة، فذهبت للمشرف أسأله عن البحث، وسبب هذا النقص، فإذا هو يتعلّل بأنه الآن لا يتذكر البحث، فطلبت منه البحث، لأنني قد سلمته الأصل، فوعدني بإحضاره، ثم فاجأني بأنه قد فقد البحث، ولا يدري أين وضعه!!

إن الإشراف على الطالب سواء كان في مرحلة البكالوريوس، أو في مرحلة الماجستير والدكتوراه أمانة عظيمة لا بد أن تُحفظ وتُرعى، وإن الانشغال عن الطالب، وعدم إعطائه الوقت الكافي إخلال بالأمانة.

ثم إن أثر المشرف ليس مقتصرًا على هذا الطالب الذي يشرف عليه؛ فكم من إفادة حسبت أنها لم تغادر طالبك، وقد نفع الله بها أقواماً، وبقي أثرها أعواماً؛ إذ نقلها تلاميذك إلى تلاميذهم؛ فيالله كم في ذلك من الأجور؛ فهنيئاً لمن اجتهد في توفية الأمانة.

فلا تحقرن نصحاً في درس، ولا إفادة في إشراف، ورُبّ درس أو إشراف أجهدت فيه الشأن، ثم أنساكه الزمان، وطالبك لا يزال يردد: لا أنساها لفلان!

وصدق الحطيئة في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعَدِّمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(١)

صانع الأقفال الذي أضحى عالماً

ترجم السبكي في «طبقاته»^(١) لأبي بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله المروزي المعروف بالقفال الصغير، فقال: «الإمام، الزاهد، الجليل، البحر، أحد أئمة الدنيا، يُعرف بالقفال الصغير المروزي، شيخ الخراسانيين وليس هو القفال الكبير، هذا أكثر ذكراً في الكتب؛ ولا يذكر غالباً إلا مطلقاً، وذلك إذا أطلق قيّد بالشاشي... كان القفال المروزي هذا من أعظم محاسن خراسان، إماماً كبيراً وبحراً عميقاً، غواصاً على المعاني الدقيقة، نقي القريحة، ثاقب الفهم، عظيم المحل، كبير الشأن، دقيق النظر، عديم النظر، فارساً لا يشق غباره، ولا تُلحق آثاره، بطلاً لا يُصطلى له بنار، أسداً ما بين يديه لواقفٍ إلا الفرار».

ثم نقل السبكي عن ناصر العمري قوله: «لم يكن في زمان أبي بكر القفال أفقه منه، ولا يكون بعده مثله، وكنا نقول: إنه ملك في صورة إنسان»^(٢). اهـ.

إنك إذا قرأت هذه الألقاب التي وُصف بها هذا الإمام؛

(١) طبقات الشافعية (٥٣/٥).

(٢) المرجع السابق (٥٥/٥).

يخيّل إليك أنه استنفد ميعه صباه إقبالاً على العلم؛ واغتنم لحظات شبابه اجتهداً في الطلب، فلم يضع منه لحظة، ولم يفوّت منه ساعة!

وكل هذا لم يكن؛ إذ ابتدأ التعلم بعد أن جاوز الأربعين، بعدما أفنى شبابه في صناعة الأقفال، وكان ماهراً فيها، فترك صناعة الأقفال إلى طلب العلم، فنبغ فيه وحذق، وكان في بداية الطلب يعيش جهلاً ظاهراً؛ حتى إنه لا يفرق بين تاء المخاطب، وتاء المتكلم، فكان يقول عن نفسه: «ابتدأت التعلم، وأنا لا أفرق بين اختصرتُ، واختصرتُ»^(١).

ومع هذا الجهل الظاهر عند هذا الإمام في بداية تعلمه، إلا إن ذلك لم يثنه عن الطلب، ولم يفتّ في عضده في النهل من العلم؛ بل جدّ واجتهد حتى تقمّص لباس العلم، وتذرّى سنام المجد، وقد ذكر قصته العجيبة الطريفة مفصلةً ياقوت الحموي في «معجم البلدان»^(٢)؛ فإنه قال لما تكلم عن مرو الشاهجان:

«وإليها ينسب أبو بكر القفال المروزي، وحيد زمانه فقهاً وعلماً، رحل إلى الناس، وصنف، وظهرت بركته، وهو أحد أركان مذهب الشافعي، وتخرج به جماعة، وانتشر علمه في الآفاق، وكان ابتداء اشتغاله بالفقه على كبر السن، حدثني

(١) طبقات الشافعية (٥/٥٤).

(٢) معجم البلدان (٥/١١٦).

بعض فقهاء مرو، أن القفال الشاشي صنع قفلاً وزنه دانق واحد، فأعجب الناس به جداً، وسار ذكره، وبلغ خبره إلى القفال المروزي، وصنع قفلاً مع مفتاحه، وزنه طُسُوج^(١)، وأراه الناس فاستحسنوه، ولم يشع له ذكر، فقال يوماً لبعض من يأنس إليه: ألا ترى كل شيء يفتقر إلى الحظ؟

عمل الشاشي قفلاً وزنه دانق، وطنت به البلاد، وعملت أنا قفلاً بمقدار رבעه، ما ذكرني أحد!!

فقال له صاحبه: إنما الذكر بالعلم، لا بالأقفال.

فرغب في العلم واشتغل به، وقد بلغ من عمره أربعين سنة، وجاء إلى شيخ من أهل مرو، وعرفه رغبته فيما رغب فيه، فلقنه أول كتاب المزني، وهو: هذا كتاب اختصرته، فصعد إلى سطح منزله وأخذ يكرر على نفسه هذه الألفاظ الثلاثة من العشاء إلى أن طلع الفجر، فغلبته عينه فنام، ثم انتبه وقد نسيها، فضاق صدره، وقال: أيش أقول للشيخ؟

وخرج من بيته، وقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر، لقد أسهرتنا البارحة في قولك: هذا كتاب اختصرته، فتلقنها منها، وعاد إلى شيخه، وأخبره بما كان منه، فقال له: لا

(١) «الطُسُوج على وزن» سَفُود، وهو مقدار من الوزن يساوي ربع دانق. تاج العروس (٨٦/٦)، والمقصود أن القفال المروزي صنع قفلاً أخفض قيمةً من القفل الذي صنعه القفال الشاشي.

يصدك هذا عن الاشتغال، فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال صار لك عادة.

فَجَدَّ ولازَمَ الاشتغال حتى كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة، أربعين سنة جاهلاً، وأربعين سنة عالماً، وقال أبو مظفر السمعاني عاش تسعين سنة، ومات سنة ٤١٧هـ. كلام ياقوت الحموي.

وإن في قصة هذا العالم الكبير عدة فوائد منها:

١ - أن من صبر على فعل أمر تطلبه، وجَدَّ في نياله فإن الله - بمنه وكرمه - يوفقه، فيدرك مبتغاه، ويحقق أمنيته، ولو بعد حين، فتأمل في سيرة هذا العالم القفال، وكيف أنه صبر على مشقة العلم، ولم يدخر دونه سعيًا، فصار من جهابذة أهل النظر، ومن ذوي البسطة في العلم، وصار أسبق أقرانه غير مدافع، وأفضلهم غير معارض، مع أنه في بداية الطريق كان لا يحسن أبجديات العلم، فلا يفرق بين تاء المتكلم وتاء المخاطب، وكان يعاني ضعفًا بيِّنًا في حفظه؛ فقد حفظ ثلاث كلمات من مختصر المزنّي، ثم نام ثم انتبه وقد نسيها، ومع ذلك صبر وصابر، فنال مطلوبه، وقد قال الرسول ﷺ: «ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»^(١)، ويقول الأول:

اطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

(١) أخرجه البخاري رقم (١٤٦٩).

أما ترى الحبل، بتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا^(١)

٢ - أن كبر السن لا يعتبر عائقاً في نيل العلم، وتحقيق
الأمجاد، والغايات النبيلة، فتأمل في قصة هذا العالم، وكيف
أنه عاش أربعين سنة منهمكاً في صناعة الأقفال، ثم لما أراد الله
به خيراً هداه لطلب العلم النافع، فكان أحد أركان المذهب
الشافعي، وقد قال البخاري في «صحيحه»: «وقد تعلم
أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم»^(٢).

وفي كتب التراجم جملة وافرة ممن طلب العلم على
كبر، فنبغوا فيه، وصاروا أئمة سادة؛ منهم الكسائي^(٣)، وابن
حزم^(٤)، والعز بن عبد السلام^(٥) وغيرهم.

فلا ييأس أحدٌ من أن يطلب علماً، أو أن يحقق مجداً،
ولا يعتذر بأن الوقت قد فات، فليست هذه علة تصرف المرء
عن تعلم الأمور الشريفة، وليكن لسان حاله كما قال الشاعر
العراقي أحمد الصافي النجفي:

عمري بروحي لا بعد سنيني فلا سخرن غداً من التسعين
عمري إلى الخمسين يجري مسرعاً والروح واقفة على العشرين

(١) بلا نسبة كما في مُغني اللبيب (ص ٥١٩، ٧٦٣)، والتصريح (/ ٦٠٩).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٥).

(٣) تاريخ بغداد (١١/ ٤٠٤).

(٤) معجم الأدباء (٤/ ١٦٥٣).

(٥) طبقات الشافعية، للسبكي (٨/ ٢١٢).

٣ - أن من المعروف الذي يغفل عنه بعض الناس الكلمة الطيبة؛ فإن الكلمة الطيبة صدقة؛ فانظر إلى هذا العالم الذي كان منهمكاً في صناعة الأقفال كيف أن كلمة واحدة من أحد أصحابه كانت سبباً بعد الله في انصرافه للعلم والإمامة فيه، وهي قوله: «إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال».

فلا يحتقر أحدنا كلمة يبذلها لأخيه؛ تحمل دلالة على خير، أو نهياً عن شر، فربما أن الله أجرى خيراً كثيراً من جراء هذه الكلمة، فكم عالم نبغ بسبب كلمة، وكم كتاب ألف بسبب كلمة، وكم مشروع نافع قام بسبب كلمة، والله يوفق من شاء من عباده؛ فيجعله مفتاحاً للخير.



بركة العلم

قد ترى الرجل جيد المَلَكَة، متوقد الذهن، سريع الإدراك قد انقطع لطلب العلم الشرعي، ووقف عليه جهده، ثم ترى أنه لم يأخذ منه حظاً، ولم يترك عليه أثراً؛ بل ربما شطح فيه شطحات، فلعلك تذكر كلمة ابن تيمية عن أهل الكلام: «أوتوا ذكاء، وما أوتوا ذكاء، وأعطوا فهوماً، وما أعطوا علوماً»^(١).

ثم ترى الرجل دون الأول في الإدراك والحفظ والألمعية، وقد منَّ الله عليه ببركة علمه، وعموم نفعه، ووفرة حظه فيه!

وترى الطالبين يحضران نفس الدروس، ويحفظان نفس المتون، وتجد عند أحدهما من بركة العلم ما ليس عند الآخر! فما سرُّ ذلك يا ترى؟

أليس الذكاء، والفطنة، والألمعية، وقوة الحافظة من أسباب النبوغ في العلم؟!

أليس الحرص في طلب العلم، والجد في تحصيله، ومثاقفة الأشياء في أخذه من أسباب تحصيل العلم، وإدراك مراميه؟!

(١) مجموع الفتاوى (٥/١١٩).

لقد تتابع أهل العلم في ذكر سر هذه الأمر، وأن الأسباب المحسوسة وحدها لا تكفي في نيل العلم الشرعي، ومن مآثور كلامهم في ذلك:

قال الإمام مالك: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يضعه الله في القلوب»^(١)، وقال مرة: «العلم قسَمٌ من الله»^(٢).

وقال الإمام أحمد: «إنما العلم مواهب؛ يؤتيه الله من أحب من خلقه»^(٣).

وزاد هذا الأمر توضيحاً ابن حزم، فقال: «اعلم أن كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدون في القراءة والإكباب على الدروس والطلب، ثم لا يُرزقون منه حظاً، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصح أنه موهبة من الله تعالى»^(٤).

ونظم هذا المعنى العلامة ابن القيم في «نونيته»، فقال:

والعلم يدخل قلب كل موفق من غير بَوَّاب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالحرمان^(٥)

(١) الإلماع (ص ٢١٧).

(٢) ترتيب المدارك (ص ٥٧).

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٥٩).

(٤) مداواة النفوس (ص ٣٨٨).

(٥) نونية ابن القيم (ص ١٦٥).

وأكد هذا المعنى ابن رجب فقال: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب؛ يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل»^(١).

ولما ترجم الذهبي لأبي سعد السَّمَّان في كتابه «السير» نقل عن الحافظ عبد العزيز الكتاني قوله: «كان أبو سعد من الحفاظ الكبار، زاهداً ورعاً، وكان يذهب إلى الاعتزال»^(٢).

ونقل في ترجمته: «أنه كان إماماً بلا مدافعة في القراءات، والحديث والرجال، والفرائض والشروط، عالماً بفقهِ أبي حنيفة، وبالخلاف بين أبي حنيفة والشافعي وفقه الزيدية، وكان يذهب مذهب أبي هاشم الجبائي، ودخل الشام والحجاز والمغرب، وقرأ على ثلاثة آلاف شيخ، وقصد أصبهان في آخر عمره لطلب الحديث، وكان يقال في مدحه: إنه ما شاهد مثل نفسه، كان تاريخ الزمان، وشيخ الإسلام».

ثم علّق الذهبي على ذلك قائلاً: «أنى يوصف من قد اعتزل وابتدع، وبالكتاب والسُّنة فقلّ ما انتفع؟ فهذا عبرة، والتوفيق فمن الله وحده» ثم أنشد الذهبي:

هتف الذكاء وقال لست بنافع إلا بتوفيقٍ من الوهَّاب^(٣)

فقد اتفقت كلمة هؤلاء الأئمة السادة أن العلم إنما هو

(١) فضل علم السلف (ص ٥٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٥٣).

(٣) المرجع السابق (١٨/٥٤).

محض توفيق من الله، يصطفي له من شاء من عباده، فهل يعني هذا أن يترك المرء فعل الأسباب؛ لأن العلم إنما هو موهبة من الله! لا؛ بل يتحتم عليه الطرق للباب، والأخذ بالأسباب؛ لكن عليه أن يلتفت مع ذلك لأعظم سبيل لبركة العلم، ألا وهو صلاح القلب.

وفي ذلك يقول أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة: «علم أحوال القلب، كالخوف والرجاء، والرضى، والصدق، والإخلاص وغير ذلك؛ فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء»^(١).

ويقول ابن جماعة: «العلم - كما قال بعضهم - صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، وكما لا تصلح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث؛ فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات، وحدث مساوئ الأخلاق وردئتها»^(٢).

وأكد هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «القلب إذا كان رقيقاً ليناً كان قبوله للعلم سهلاً يسيراً، ورسخ العلم فيه وثبت وأثر، وإن كان قاسياً غليظاً كان قبوله للعلم صعباً عسيراً»^(٣).

ثم قال: «ولا بد مع ذلك أن يكون زكياً صافياً سليماً حتى يزكو فيه العلم، ويثمر ثمرأً طيباً، وإلا فلو قبل العلم،

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص ١٨).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص ١٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٥/٩).

وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغْل في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بين لأولي الأبصار^(١).

فتأمل كلامه رَحِمَهُ اللهُ: «فلو قبل العلم، وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغْل في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب» فإنه يلخص المشهد.

فالمعول على هذا القلب، فإذا صلح صلحت دروب صاحبه في العلم، وإذا كان مريضاً ناله من نقصان العلم بحسب مرضه، كما قال الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢).

وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

علّق ابن تيمية على الآية فقال: «تعليم الرب، وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه؛ فمتى علّمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم، وهلم جرّاً»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٣١٥/٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧٨/١٨)، وحين تعليقه على الآية رَحِمَهُ اللهُ قال: «أكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني =

وقال في موضع آخر: «لا ريب أن الله يفتح على قلوب الأولياء المتقين وعباده الصالحين؛ بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح على غيرهم»^(١). فتأمل قوله: (طهارة قلوبهم).

فالعلم النافع المبارك، وصلاح القلب رضيعاً لبان، وشريكاً عنان.

وقد نقل أبو بكر المروزي عن الإمام أحمد إشارة في ذلك، فقال: «سمعت فتح بن أبي الفتح يقول لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد - في مرضه الذي مات فيه: ادع الله أن يحسن الخلافة علينا بعدك؟ وقال له: من نسأل بعدك؟ فقال: سل عبد الوهاب بن عبد الحكم، وأخبرني من كان حاضراً، أنه قال له: إنه ليس له اتساع في العلم؟! فقال أبو عبد الله: إنه رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق»^(٢).

= بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل؛ واتقوا الله يعلمكم، ولا قال فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال: زرني وأزورك؛ وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاضد من الطرفين... فقله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قد يكون من هذا الباب؛ فكل من تعليم الرب...».

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤٥).

(٢) كتاب الورع (ص٧).

فأنعم النظر^(١) في هذه الكلمة العظيمة التي خرجت من هذا الإمام الذي استبطن دخائل العلم، واستجلى غوامضه، وغُذي بلبانه، في آخر لحظات حياته؛ فإنها تؤكد ما سبق، وأن الصلاح سبيلٌ للتوفيق في العلم، وإصابة الحق فيه، وأن واسع العلم قد يخذل؛ إذا لم يسعفه صلاح.

ومن الدعوات العظيمة التي اشتهرت عن العلامة ابن باز دعاؤه الدائم بـ: «اللَّهُمَّ أصلح قلبي» فقد كان يدعو بهذه الدعوة يوم كان قاضياً في الدلم قبل عام ١٣٧١هـ، وسمعت منه لا يفتأ من ترادها في آخر عُمره له عام ١٤١٩هـ.

وقد لخص الأسباب التي ينال بها العبد صحة القلب الإمام ابن القيم فقال: «صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد... يمدده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى»^(٢).

فاللهم أصلح قلوبنا، ولا تحرمنا بركاتك بذنوبنا.



(١) قولهم: أنعم النظر في الشيء، إذا أطال الفكرة فيه، وقيل: هو مقلوب أمعن. ينظر: تاج العروس (٥١٢/٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (٦٩/١).

تَوَقَّعَ ابْنُ قَدَامَةَ

أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَالَمُ شَيْئاً وَلَكِنْ!

هذا عالمٌ ترجم له الحافظ الذهبي، فأسبغ عليه ألقاب الشناء، وخلع عليه ألقاظ التبجيل فقال: «الشيخ، الإمام، المفتي الأوحد، الواعظ الكبير.. تفقه، وبرع في الوعظ، ودرّس، وأفتى، وصنّف، وكان له قبول زائد، حدّث ووعظ بمصر وبدمشق، له خُطب ومقامات، وكان حلو الإيراد، صارماً، مهيباً، شهماً، كبير القدر»^(١).

وكان الموفق ابن قدامة من شدة إعجابه بهذا العالم يتفرس فيه أن يكون إماماً ذا شأن في المذهب الحنبلي؛ وذلك لما يملكه من أهلية تميز بها عن غيره.

ومع هذه المواهب الحسنة، والصفات المستحسنة لهذا العالم - غفر الله له - إلا إنه لم يكن كما توقع ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ، وفي ذلك يقول ابن قدامة: «كنت أتخيل في - ثم ذكر اسمه - أن يكون إماماً بارعاً، وأفرح به للمذهب؛ لما فضّله الله به من شرف بيته، وإعراق نسبه في الإمامة، وما آتاه الله تعالى من بسط اللسان، وجراءة الجنان، وحِدَّة الخاطر، وسرعة

(١) إعلام الموقعين (٦/٢٣).

الجواب، وكثرة الصواب، وظننت أنه يكون في الفتوى مبرراً على أبيه وغيره، إلى أن رأيت له فتاوى غيره فيها أسدّ جواباً، وأكثر صواباً، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبهته تخطئة الناس، واتباعه عيوبهم، ولا يبعد أن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه - إلى أن قال: وهو قد شغل كثيراً من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم، وكشف ما استتر من خطاياهم، ومحبة بيان سقطاتهم، ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه، أفتراه يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته، وعيب تصانيفه، وإظهار أخطائه، وكما لا يحب ذلك لنفسه ينبغي أن لا يحبه لغيره، سيما للأئمة المتقدمين، والعلماء المبرزين، وقد أَرانا الله تعالى آية في ذهابه عن الصواب في أشياء تظهر لمن هو دونه»^(١).

فنبّه الموفق - عليه رحمة الله - على أن من أسباب صد هذا العالم عن الصواب بأنه قد شَغَلَ كثيراً من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم، وكشف ما استتر من خطاياهم، ومحبة بيان سقطاتهم، واتباع عيوبهم!

ومن آثار الوقعة في الناس أن الحافظ ابن حجر ترجم لأحد أهل العلم، فقال: «كان عالماً، له يد في النحو والحديث، حسن الشكل، كَيِّساً، متواضعاً، لَيِّن الجانب.. وقرأت بخط ابن حجي: أنه تغير في آخر عمره تغيراً شديداً، ونسي بعض القرآن؛ فكان يقال: إن ذلك لكثرة وقيعته في

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٤٣٠).

الناس - عفا الله تعالى عنه بمنّه وكرمه -^(١).

فَاللّٰهُمَّ عافنا فيمن عافيت؛ وصدق زيد بن سنان لما قال:
«إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين، يتعلم
الوقية في الناس، متى يُفلح؟!»^(٢).

فإذا رأيت الرجل قد اشتغل في الآخرين، ينقُر أخطاءهم
تنقيراً؛ ويعلنها جملة وتفصيلاً، فاعلم بأنه رجل خائب
مخدول، وسل ربك العافية من هذه الحال.

وإذا رأيت الرجل مشغلاً بنفسه عن الناس، وإذا سمع
خطأ عن أخيه لم يشنّع، ولم يفضح، ولم يفرح؛ بل توجع
لأخيه واعتذر، وإن اقتضى الأمر نصحه وستر، فهو الشريف
الماجد النبيل.

وما أرق وأجمل ما ذكره ابن القيم في ذلك من
مستحسنات التوبة والإنابة قائلاً: «من دلائل رقة قلب المؤمن
وإنابته أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر؛ حتى كأنه هو
الذي عثر بها، ولا يشمت به»^(٣). اهـ. بتصرف.

فهذا خُلِق عال، يدل على مروءة عظيمة، وشهامة كبيرة،
وقلب زكي، وصدر نقي؛ وحقيق بأن يوفق صاحبه ويسدّد؛
فالجزاء من جنس العمل.

(١) إنباء الغمر (١/٤١٠)، والدرر الكامنة (٦/٢٤).

(٢) ترتيب المدارك (٤/١٠٤).

(٣) مدارج السالكين (١/٤٣٥).

والله لا جاء منك شيء!

لا يخلو المرء في مراحل حياته من أن يجد في الناس متهمكاً به، أو ساخراً منه، أو شامتاً له، أو معاتباً عتاباً قاسياً؛ وتختلف النفوس في التعامل مع هذه الكلمات الموجهة.

فمنهم من تكسره كسراً؛ فتهشّم موهبته البديعة التي سُخِرَ منها، وتلغي مشروعه النافع الذي هزى به.

ومن أمثلة ذلك ما حدّث به الشيخ علي الطنطاوي عن عالم مات ولم يؤلف كتاباً بسبب خذلان شيخه له!

يقول الشيخ علي: (العلامة المرحوم الشيخ سليم البخاري مات وما له مصنفٌ رسالة فما فوقها، على جلاله قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه؛ وسبب ذلك أنه صنّف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلة عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرضها على شيخه، فسخر منه وأنبه، وقال له:

أيها المغرور! أبْلَغَ من قدرك أن تصنّف، وأنت.. وأنت.. ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة.. فكانت هي أول مصنفات العلامة البخاري وآخرها!).

ثم تحدّث الطنطاوي - بعد هذا - عن نفسه، وكيف أن

سخرية قاسية كانت سبباً في طمس موهبته الشعرية فقال: (كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق، حتى إذا اجتمع عندي كثير من القطع، عرضته على أستاذ العربية، وكان لسوء الحظ تركياً يسمّى إسماعيل حقي أفندي، يعلمنا النحو العربي باللسان التركي!

فلما قرأه سخر مني وسبني وتهكّم عليّ، وجاء من بعد أخي أنور العطار، فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع، عرضه على الأستاذ كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، فأقام له حفلة تكريمية!

فكانت النتيجة أنني عجزت عن الشعر، حتى لنقلُ البحر بفمي أهون عليّ من نظم خمسة أبيات، وأن أخي أنور العطار غدا شاعر الشباب السوري، وسيغدو شاعر شباب العرب!)^(١).

ومن الناس مَنْ يستثمر مثل هذه الكلمات مع شدة حرها، وقسوة وقعها، فيجعلها وقوداً ينضح بها موهبته، في عمل أكثر نفعا، وانطلاقة أكثر مجداً؛ على ما قيل في المثل المعاصر: «الضربة التي لا تميّني تزيدني قوة».

والمربي الناجح مَنْ يربي مَنْ تحت يده على هذا المعنى؛ فيكون عند هذا الناشئ حصن منيع يتقي به سخرية الشامتين، وهزء الساخرين، وقسوة العاتبين.

(١) فكر ومباحث (ص ١٢٩ - ١٣٠).

والناظر في كتب السير يجد نوابغ وعلماء لقوا شيئاً من ذلك في بداية تحصيلهم؛ فلم يلتفتوا إلى هذا الكلام الملقى؛ بل استثمروه في تحقيق الأمجاد، وسلوك طريق العلم، وفيما يأتي خمسة مواقف في هذا الصدد:

■ **الموقف الأول:** الإمام الكبير، والفقير العظيم مالك بن أنس، يحكي موقفاً عجباً له في سبب إقباله على العلم، فيقول: «كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي، وأخطأت. فقال لي أبي: ألهمت الحمام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمل ثمان سنين لم أخلط بغيره»^(١).

فتأمل كيف كانت هذه الكلمة العاتبة التي أغضبت هذا الإمام سبباً في إقباله الكبير على العلم، ونبوغه فيه!

■ **الموقف الثاني:** جبل الحفظ، وإمام الدنيا في الحديث البخاري، يذكر عن نفسه موقفاً حدث له وهو صغير، فيقول: «كنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي، فإذا جئت أستحيي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين. وأردت بذلك حديثين، فضحك من حضر المجلس، فقال شيخ منهم: لا تضحكوا؛ فلعله يضحك منكم يوماً!!»^(٢).

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض (١/١٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/٨٤).

فانظر إلى الإمام البخاري، كيف لم يلتفت إلى ضحك هؤلاء عليه؟

بل استمر في طلب الحديث وكتابته، أما هؤلاء الذين ضحكوا فلم يذكر التاريخ اسم واحد منهم؛ بل آخر العهد بهم هو هذه الضحكة التي أطلقوها على البخاري، فذهبوا، وخلد التاريخ اسم هذا الإمام المفخرة.

■ **الموقف الثالث:** إمام النحو سيبويه، الذي هو والنحو كأنما هما غصنا دوحة واحدة، ورضيعا لبان واحد، حتى إنه ليخيل لبعضنا من التصاق اسم سيبويه في النحو أن سيبويه ولد نحويًا!

وفي إقباله على تعلم النحو سبب لطيف؛ فقد كان سيبويه مستملياً لحماذ بن سلمة، وكان حماد فصيحاً، فاستملاه يوماً قول رسول الله ﷺ: «ليس من أصحابي أحدٌ إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فصاح به حماد: لحت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما هو استثناء. فقال سيبويه: لا جرم والله، لأطبلن علماً لا تلحنني معه، فمضى ولزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين^(١).

فرحم الله إمام النحو سيبويه، كيف جعل تخطئة حماد بن

(١) مجالس العلماء، للزجاجي (ص ١١٨).

سلمة له سبباً في انصرافه لعلم النحو، فنبغ فيه وحذق؛ فكل من جاء بعده عيال عليه في النحو.

■ **الموقف الرابع:** العالم المقرئ، شيخ القراءة والعربية، الإمام الكسائي، سبب إقباله على تعلم النحو ما ذكره الفراء قال: «إنما تعلم الكسائي النحو على الكبر، وكان سبب تعلمه أنه جاء يوماً وقد مشى حتى أعى، فجلس إلى قوم، فقال: قد عييتُ. فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟ فقال: كيف لحت؟ قالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل: أعيتُ، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل: عييتُ مخففةً.

فأنف من هذه الكلمة، ثم قام من فوره ذلك، فسأل عمن يعلم النحو، فأرشد إلى معاذ الهراء، فلزمه حتى أنفد ما عنده، ثم خرج إلى البصرة، فلقي الخليل، وجلس في حلقة»^(١).

■ **الموقف الخامس:** العالم الكبير، والفقيه الحنفي أبو جعفر الطحاوي، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر.

كان شافعياً يقرأ على خاله أبي إبراهيم المزني، فمرت مسألة دقيقة فلم يفهمها أبو جعفر، فبالغ المزني في تقريبها له، فلم يتفق ذلك، فغضب المزني متضجراً فقال: والله لا جاء منك شيء!

(١) تاريخ بغداد (١١/٤٠٤).

فقام أبو جعفر من عنده وتحول إلى أبي جعفر بن أبي عمران، وكان قاضي الديار المصرية فتفقه عنده ولازمه، فلما صنّف مختصره في الفقه قال: رحم الله أبا إبراهيم - يعني المزني - لو كان حياً لكفر عن يمينه - يعني الذي حلفه أنه لا يجيء منه شيء - ^(١).

ولو استسلم الطحاوي لهذه الكلمة لم يؤلف كتبه التي صارت محل حفاوة عند أهل العلم، كأحكام القرآن، وشرح مشكل الآثار، وشرح معاني الآثار، والعقيدة الطحاوية، وغيرها.

وبعد، فهذه نماذج لهؤلاء الأئمة السادة، طوّعوا هذه المواقف، فجعلوها سبيلاً لتحقيق مآرب شريفة، وغايات نبيلة؛ وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

فلا ينبغي للمرء بعد هذا أن تثنيه عن عزمه الشريف كلمة شامت، ولا ضحكة ساخر، ولا تعويق معوّق؛ بل الناجح من يجعل هذه الكلمات سُلماً للترقي في الكمالات، فإنه سيأتي الزمان الذي يحدث فيذكر أن كلمة قاسية كادت أن توقف موهبته، وأن كلمة ساخرة كادت أن تتلف مشروعه؛ ولكنه بفضل الله - مضى غير هيّاب، فأدرك بغيته، وأنجز طلبته، والله - سبحانه - يلهم من شاء التوفيق والسداد.

(١) طبقات الفقهاء، للشيرازي (ص ١٤٢)، ولسان الميزان (١/ ٢٧٥).

اكتشاف الموهبة

قد يبلغ الإنسان مبلغاً من عمره، وهو لا يدري الموهبة التي تلائم حاله، ولا الصنعة التي تناسب ميوله؛ فتراه يحترار في تحديد الكلية التي سيدع فيها، ويضطرب في معرفة أمنية المستقبل، فربما تقلّب في الأعمال، وتنقل بين المهن، دون أن يعرف نفسه!

وقد حصل شيء من ذلك للأديب عباس العقاد، فقد تحدّث عن مناه في المستقبل يوم كان صبيّاً، فقال: «هدفي في الحياة كان في الصّبا أن أتولى القيادة العسكرية، ثم تحولت أو خيّل لي أن أتحوّل إلى دراسة علوم الزراعة والحيوان، وأن ألتحق بمدرسة الزراعة».

ثم تحدّث كيف كشف موهبته الأدبية، فقال: «ثم تبين لي من مراجعة نفسي مراجعةً دقيقةً أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية، وإلى العلوم الزراعية باعثاً واحداً هو حب الأدب، وأن التفاتي إلى الجندية والزراعة إنما كان التفاتاً للأدب من طريق آخر...»^(١).

وإن من توفيق الله للإنسان أن يمن عليه بمعرفة العمل

(١) أنا للعقاد (ص ١٠ وص ١١٢).

الذي يلائم موهبته، والتخصص الذي سيحقق فيه طلبته، إذ قد يموت بعض الناس، وتموت معه موهبة حسنة لم تُبعث من مرقدِها.

وإن من سبل اكتشاف الإنسان لموهبته أن يُمنَّ عليه بناصح أمين يهتدي به إلى سواء السبيل، ويبصر به ما غاب عنه من شؤونه.

وهؤلاء ثلاثة من كبار أهل العلم، كانوا بادئ أمرهم منشغلين بغير العلم؛ فجاءهم ناصحٌ فانتصحوا، فسلكوا طريق العلم، ففازوا وفاقوا وأفلحوا:

الأول: الإمام أبو حنيفة، فقد كان في بادئ أمره منشغلاً بالاختلاف إلى السوق للتجارة، ولم يكن مهتماً بالعلم، فأراد الله به خيراً، فمر يوماً على أحد التابعين الكبار، فجرى منه محادثة يسيرة مع أبي حنيفة كانت نقطة تحول في حياة هذا الإمام، يحدثُ بها فيقول: «مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني، وقال لي: إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق. فقال: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق، عنيتُ الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم. فقال لي: لا تغفل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة. قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في طلب العلم، فنفعني الله بقوله»^(١).

(١) عقود الجمان، للصالحى (ص ١٦٢).

لقد انتفع أبو حنيفة بإرشاد الشعبي، ولقد أحسن الشعبي رَحِمَهُ اللهُ إلى أبي حنيفة؛ إذ لفت انتباهه بأن عنده يقظة وحركة تلائم العلم والتعلم، فانتفع أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ بوصيته، فصار للناس إماماً.

الثاني: الإمام الشافعي، فقد كان في بداية أمره يقرأ في الشعر؛ حتى جاءه من يرشده، فتحوّل إلى علم الفقه والحديث، يقول الشافعي: «كنت أقرأ كتب الشعر، فأتي البوادي، فأسمع منهم، قال: فقدمت مكة، فخرجت وأنا أتمثل بشعر للبيد، فضربني رجلٌ من ورائي من الحَجَبَةِ فقال: رجل من قریش، ثم من بني المطلب، رضي من دينه ودنياه أن يكون معلماً!

ما الشعر إذا استحكمت فيه؟!

ألا قعدت معلماً تُفَقِّه؟ لعل الله ينفعك، وينفع بك.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحَجَبِي^(١)، فرجعت إلى مكة، فكتبت عن ابن عُيَيْنَةَ ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي، ثم قدمت على مالك بن أنس فكتبت موطأه^(٢).

(١) بفتح الحاء والجيم وكسر الباء، هذه النسبة إلى حِجَابَةِ البيت المعظم، وهم جماعة من بني عبد الدار، وإليهم حِجَابَةُ الكعبة ومفتاحها. ينظر: الأنساب للسمعاني (٧٠/٤).

(٢) مرآة الزمان (٦٠/٩)، وطبقات الشافعية (١٢١/٢).

فَلِلَّهِ در هذا الْحَجَبِي ما أَنْصَحَهُ! ولقد صدقت فراسته،
فانتفع الشافعي ونفع؛ فما زال علمه ينتفع منه المسلمون في
شتى أقطار الأرض؛ فيالله كم لهذا الْحَجَبِي من الأجور!

الثالث: العالم محمد بن أبي الحسين اليونيني الحنبلي؛
نشأ يتيماً، فأسلمته أمه نَشَابِيًّا^(١)، فصار له في الشهر خمسة
دراهم، فكان يرتفق بها.

ثم ذهب يوماً إلى المقرئ يسلم عليه، فقال له: لم لا
تلازم القرآن يا ولدي؟ فإنك يجيء منك شيء، فاعتذر بأنه في
دكان، فقال: كم يعطيك؟ قال: خمسة دراهم في الشهر.

فأخرج هذا المقرئ له خمسة دنانير وقال: أنا أعطيك
كل شهر هكذا.

فاجتمع بأمه وكلمها، فلازمه فختم عليه القرآن في مدة
يسيرة... ثم لازم الحفظ حتى حفظ «الجمع بين الصحيحين»
للحُمَيْدِي، واشتغل بالفقه والحديث إلى أن صار إماماً
حافظاً^(٢).

فما أحسن تصرف هذا المقرئ، يوجّه هذا اليتيم إلى
الطريق الأمثل، ويخبره بأن الذي يليق بحاله الآن ملازمة
القرآن، ثم يفيض جوداً فيتحمل نفقته في هذا السبيل، وهذا ما

(١) هو الرّامي بالنُّشَاب، وهو النبل. ينظر: المعجم الوسيط ١/٩٢١.

(٢) تاريخ الإسلام (١٤/٨٨٩).

يسمى في زماننا بـ: رعاية الموهوبين، فحفظ هذا اليتيم القرآن، واشتغل بالعلم، فنفع وانتفع.

وإن في هذه الأخبار الثلاثة لفائدةً في أنه ينبغي للمعلم والمربي ألا يخل بتوجيه من تحت يده؛ بل عليه أن يتفرس في طلابه، فيعرف الموهوب من غيره، ويميز بين من يحمل مخايل النجاسة ممن تستعجم عليه المدارك الظاهرة، فيحتسب فيوجه كلاً إلى ما يليق به، فلعله أن يأتي اليوم الذي يرى فيه من هذا التلميذ ما يسره، فتبتهج بذلك نفسه، ويعظم بذلك أجره، وكم توقع قد صار واقعاً، والله الموفق.



طالب لم ينسَه والدي

للوالد العزيز - مَنَّه الله متاعاً حسناً - تجربةٌ في تعليم القرآن، فلقد قدم إلى الزلفي من قرية الثوير^(١) عام ١٣٨٢هـ، وحلقات القرآن في ذلك الزمان تكاد تكون نادرة، يقوم بها بعض المحتسبين، وكان الوالد قد وعى القرآن، فأقام في تلك السنة التي قدم فيها عدة حلقات، منها: حلقة في مسجد العليوية الذي يسمَّى الآن بمسجد سعد بن معاذ، وحلقة في الجامع الشمالي الذي يسمَّى الآن بجامع الملك عبد العزيز، وحلقة متنقلة في بعض البيوت، وكانت الدراسة في إجازات المدارس، وكانت الدراسة على فترتين صباحية، ومساءية، وكان عدد الطلاب في هذه الحلقات كلها يقرب من المائة.

لكنَّ طالباً من هؤلاء لا يزال الوالد يُشيد بذكره، ويُعلي من أمره، كان هذا الطالب صغيراً في سنه، لم يتجاوز العاشرة من عمره، لكنه كان كبيراً في عقله، فلا ترى فيه طيش الأطفال ولا عبثهم؛ بل كان رضيَّ الخلق، هادئ الطبع، كأنما ترى رجلاً مكتمل الرجولة، علائم الجِدِّ عليه ظاهرة، فقد برَّع الطلاب، وفاقهم؛ لما منَّ الله عليه من قوة الذاكرة، وسرعة

(١) هي قرية تقع شمال محافظة الزلفي، بمقدار أربعين كيلاً.

الحفظ؛ حتى إنه ربما حفظ على الوالد في الجلسة الواحدة عشرة وجوه، وكانت الطريقة التي يتبعها الوالد مع طلابه هي أن يقرأ عليه الطالب المقطع من المصحف، ثم يذهب الطالب فيحفظ المقطع، ثم يأتي ويقرؤه عن ظهر قلب، فكان هذا الطالب مختلفاً عن بقية الطلبة، فكان الوالد يعطيه من الوقت أكثر منهم، فربما أتى في الجلسة الواحدة عشر مرات، يقرأ من المصحف، ثم ما يلبث إلا يسيراً، فيأتي ويقرأ عن ظهر قلب، حتى ذكر الوالد أنه حفظ عليه في مدة وجيزة جداً عشرة أجزاء من آخر المصحف.

ومضت السنون، وانشغل الوالد بدراسته النظامية، وذهب إلى الرياض، ولكن ذكرى هذا الطالب لا تزال عالقة بذهنه، فصادفه مرة، وإذا هو يلقي منه همة عليّة في طلب العلم، وعزماً راسخاً في الإقبال عليه، فأوصاه ببعض المشايخ، وافترقا، ومضت الأيام، وانصرف الوالد لدراسته في الرياض، لكنه إذا جاء إلى الزلفي سأل عنه، وإذا هو يُحدّث أن هذا الطالب قد رحل إلى بريدة يبتغي العلم، وأنه قد برز أقرانه، فحذق في العلم ونبغ، وصار له فيه شأن كبير، فكان مقصداً للطلبة، ومرجعاً في العلم، خاصة في علم الحديث، وكانت له التأليف النافعة، والدروس الجامعة، وهو لا يزال طري العود، غص الإهاب.

وكان هذا الطالب إذا جاء إلى الزلفي يزور الوالد، وهذا

يدل على وفاء نفس، وحسن عهد، وحسن العهد من الإيمان، ولم يزل هذا الطالب حسن الذكر، حميد السمعة، طيب الثناء، حتى جاء عام (١٤٠٨هـ)، وبالتحديد في الثامن والعشرين من شهر شوال وإذا بالناس يُفجأون بسماع خبر رحيله عن هذه الدنيا، فبكى عليه الناس، وتأسفوا لموته، وحضر جنازته الجُمُ الغفير، وكان عمره حين وفاته خمساً وثلاثين سنة.

بقي هنا أن يُعرف من هو هذا الطالب الذي لفت الأنظار إليه منذ الصغر؟

إنه الشيخ العلامة عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش رَحِمَهُ اللهُ. وإن في هذه التجربة لفائدة في أنه ينبغي للمعلم أن يعرف الهازل في طلابه من الجاد، والتميز من غيره، ولا يعاملهم معاملة واحدة؛ بل يخص المتميز بمزيد عناية، فيعطيه شيئاً من جهده ويجود عليه بشيء من وقته، وليثق بأن جهده لن يضيع سدى.



الشيخ محمد موسى «صاحب ابن باز»

عرفت الشيخ محمد بن موسى موسى رَحِمَهُ اللهُ منذ نعومة أظفاري، في أوَّل من عرفت من الرجال، فقد كان صاحب والدي الأول، ونديمه المفضل.

كان رَحِمَهُ اللهُ لطيفاً يألّفه الصغير قبل الكبير، فقد كان سهل الأخلاق، أريحي الطباع، لطيف المعاشرة، حسن الكلام، جيد الاستماع، تام الأدب؛ لا تخشى أن يسوءك بكلمة.

ولقد وُفِّقَ الشيخ محمد توفيقاً، فطلبه العلامة عبد العزيز بن باز؛ بتاريخ ١٢/٦/١٤٠٤هـ؛ ليعمل مديراً لمكتب بيته، فما أسعده من عمل، وما أهناه من مقام، أن تكون قريباً من عالم العصر، تفيد من علمه وفضله، وتقبس من هديه ودلّه.

فتولى الشيخ محمد إدارة مكتب بيت الشيخ إلى أن توفي الشيخ في ٢٧/١/١٤٢٠هـ، فقام بالعمل خير قيام، ولازم الشيخ ملازمة تامة؛ فهو الذي يقود الشيخ إذا كان عنده؛ وهو أحد قراء الشيخ المقرئين؛ حتى إنه ليزكّر بمَعْنِ بن عيسى؛ أحد تلاميذ الإمام مالك، وأقربهم إليه، وألصقهم به؛ فقد تحدث عنه ابن عبد البر فقال: «كان أشدَّ الناس ملازمة لمالك، وكان

مالكٌ يتكىء عليه في خروجه إلى المسجد؛ حتى قيل له: عُصِيَّةُ مالك^(١).

وكان لشدة تعلق الشيخ محمد بالشيخ وتأثره به يُشَبَّه به في أخلاقه وسماحته؛ فأخلاق الشيخ تسير في أخلاقه، وسماحته تجري في صفاته.

وإن من توفيق الله لعبده أن يسخره لنفع الناس، وقضاء حاجاتهم، وهكذا كان الشيخ محمد؛ فلم يكن مستنكفاً متعظماً؛ ولا مبتغياً حاجة نفسه فقط؛ بل كان متواضعاً جواداً، يشهد من خالطه أنه لا يتردد في نفع الناس، والشفاعة لهم عند الشيخ إذا كانوا مستحقين، فقد كان له حظوة عند الشيخ؛ فكان لشفاعته عنده مكانة، ولقوله اعتبار؛ فحصل من جرّاء ذلك تفريجُ كربات، وانفكاكُ أزمات، ودعمٌ لجهات خيرية، وبناءٌ لمؤسسات وقفية.

وكان الشيخ محمد إذا تحدث عن الشيخ ابن باز لطيف النادرة، غزير المادة؛ فحديثه السحر الحلال، العذب الزلال؛ فهو ينثر من عبق شيخه طيباً وريحاناً، عن اليمين والشمال.

وقد كنت أتحين مجيئه للزلفي؛ لأستمع أخبار الشيخ التي يرويها؛ فقد كان وفياً لا يقدم قَدَمَةً إلى الزلفي إلا ويمر فيها على والدي.

(١) الانتقاء، لابن عبد البر (ص ٦١).

وأذكر - مرة - أنه أتى إلى والدي عصر أحد أيام الاختبارات في الكلية، وكان عندي في الغد اختباراً في مادة التفسير، وكان المنهج طويلاً، فكنت في حيرة من أمري، هل أحضر عنده، أم أدرس مادتي، فعزمت أمري أن أحضر عنده، وتركت ما بيدي من مذكرات؛ فمجلسه لا يمكن تفويته؛ فهو يروي سيرة الشيخ كفاً ليس بينه وبينه واسطة؛ فهي سالمة من الانقطاع والإرسال.

وقد روى في سيرة العلامة ابن باز كتاباً يعد من أمتع الكتب، وأنفع السير التي كتبت عن الشيخ، وقد جمّل الكتاب وحسّنه صياغة شيخنا الأديب المفضل محمد بن إبراهيم الحمد، فاضرب بسهمك فيه يا طالب سيرة الشيخ، فهذا مغتسل بارد وشراب.

وكان هو الذي أشار على والدي أن يقدّم الشيخ عبد العزيز لمؤلفاته؛ فكان من جرّاء ذلك أن قدّم الشيخ لأربعة من مؤلفات الوالد، وكان لأول كتاب يقدمه الشيخ قصة لطيفة؛ وهي أن والدي لما انتهى من تأليفه؛ وذلك قبل ٣٥ عاماً أعطاه أحد المشايخ الفضلاء ليقدم له، فقرأ منه هذا الشيخ ثلاثين صفحة، ثم اعتذر، وكتب عليه ملحوظات كثيرة عامة وخاصة، ونصيحةً بالألا يستعجل في خروج الكتاب، وكان أول مؤلف لوالدي.

يقول والدي: «أصابني كلمات هذا الشيخ بتردد كبير،

أتمم نشر الكتاب أم لا؟ وهل أنا أهلٌ للتأليف أو لا؟ فذكرت هذا الأمر لصاحبي الشيخ محمد موسى، فاقترح علي أن أعطيه نسخة؛ حتى يقرأه على الشيخ، ويرى هل يصلح الكتاب للنشر أو لا؟ فأعطيته نسخة.

يقول والدي: «وفي ضحى أحد الأيام، وبينما أنا نائم إذ رأيت الشيخ محمد موسى في المنام، وهو يقول لي: أبشر؛ انتهيت من قراءة الكتاب على الشيخ، وسيقدم له، فقمتم من المنام أضحك».

يقول الوالد: «وبعد أيام إذ بالشيخ محمد موسى يزورني في بيتي معه مقدمة الشيخ ابن باز للكتاب، وهو يقول: انتهينا منه ضحى اليوم الفلاني، فتعجبت؛ إذ هو نفس الوقت الذي رأيت فيه تلك الرؤيا». اهـ.

ولا أنسى أول مرة رأيت فيها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، فقد كان الفضل له فيها بعد الله، وكنت وقتها في السادسة عشرة من عمري، وكانت وقت الحج، وكان الناس قد أطافوا بالشيخ يسألونه، فيجيبهم، فرآني الشيخ محمد، وعرض علي السلام على الشيخ، فكدت أطيّر فرحاً، فلما انفضّ الناس ناداني، وأدخلني على الشيخ في خيمته، فما راعني إلا الشيخ أمامي حاسر الرأس، فأخذ يسأل عن حالي ودراستي، ويسأل عن والدي، فكانت الكلمة تتعثر في فمي؛ هيبَةً لهذا الإمام!

يأبى الجوابَ فما يُراجع هيبَةً والسائلون نواكس الأذقان

هَدْيُ التَّقِيّ، وعزُّ سلطان التُّهَيّ فهو العزيزُ وليس ذا سلطان^(١)

لقد كان الشيخ عبد العزيز للشيخ محمد موسى ملء السمع والبصر، يقبضه ما يقبضه، ويبسطه ما يبسطه؛ ولذا فقد كان فقْدُ الشيخ ابن باز على الشيخ محمد شديداً أليماً، فقد كان محزون الصدر، مشغول القلب، تذرف عينه دمعاً عند ذكره، وتخنقه العبرة أحياناً إذا حدث عنه.

توفي الشيخ محمد ليلة يوم الخميس ٣/١٠/١٤٣٢هـ؛ وذلك إثر حادث وقع للشيخ، وقد عمل الشيخ في يوم موته أعمالاً صالحة، فقد جاء إلى محافظة الزلفي مساء ثاني أيام العيد، فسَلَّمَ على إخوته وأخواته، ثم قصد إلى ابن أخيه الشيخ محمد بن عبد الله الموسى، فصلى معه العشاء، وأعطاه مبلغاً من المال، وقال له: ضعه في الفقراء والمحاويج، ثم مضى وإياه إلى اجتماع عائلة الطوالة، وكان له موعد محاضرة معهم؛ فألقى محاضرة عن سيرة الشيخ ابن باز، فأفاض في الحديث عنه قرابة الساعة، ثم بعدها ذهب إلى اجتماع عائلته عائلة الموسى، ثم بعدها ودَّعهم، ومضى قافلاً إلى الرياض مع ابنيه، وفي الطريق حصل له الحادث رَحِمَهُ اللهُ.

(١) عزاه المبرد في الكامل (٨٤٨/٢) إلى ابن الخياط المدني، وعزاه ابن عبد ربه في العقد الفريد (٨٨/٢) إلى الإمام عبد الله بن المبارك، وفي كَلَا المصدرين أن البيتين قِيلا في الإمام مالك.

فهذه أعمال صالحة كانت قبيل موته، رحم موصولة،
وصدقة مبذولة، وكلمة طيبة مسموعة.
اللَّهُمَّ ارحم الشيخ محمداً، وارفع درجته في المهديين،
واغفر لنا وله أجمعين.



والدي وثوب العيد

كان والدي - متعه الله متاعاً حسناً - في السنة الرابعة عشرة من عمره تقريباً، وقد دخلت أيام العشر الأواخر من رمضان، فالعيد قد اقترب، ولا بد أن يتهيأ له بثوب جديد، والذي لا يكاد يصيبه الواحد منهم في العام إلا مرة أو مرتين فقط، وقربتهم الثوير خالية من الباعة، ولكي يحصل على ثوب العيد لا بد أن يقصد مدينة الزلفي؛ ففيها تباع الأقمشة، فاستأذن والديه، وعقد النية أن يمشي من غده باكراً، فصلى الفجر في قريته، وانطلق صائماً راجلاً حافياً وحيداً من الأصحاب، قاصداً الزلفي، يقطع هذه الكثبان الرملية المسماة بنفود الثويرات.

والمسافة بين الزلفي والثوير تصل إلى ٤٠ كم، يعالج مشقة في صعود هذه الكثبان، فكان إذا صعد مشى الهويناً، وإذا انصبت قدماه نازلاً أسرع.

قلت لوالدي: الصيام مع هذا المشي مهلكة؟ فقال: لا، لقد كانت من أيام الربيع، ولم يأت الصيف بعد!

وقبل أن يصل الزلفي بعدة كيلومترات وجد سيارة من

السيارات الكبيرة تحمل الطين، يقول والدي: فنظرت إلى السائق، وإذا هو صالح بن محمد السيف رحمته الله وإذا به يشير إلي أن اركب، ففرحت بإشارته، وركبت فوق هذا الطين، وكأنني - بعد هذا المشي المتواصل - راكبٌ فوق فراشٍ وثير!

فانطلق به حتى وصل مركز علة^(١)، فأنزله فيها، وقد حان وقت صلاة الظهر، فصلى فيها، وأكمل طريقه، إلى بائع الأقمشة، والمشهور به في ذلك الزمان هو عبد الله المجاهد البداح رحمته الله فاشتري منه قطعة قماش، ثم بات ليلته في الزلفي، ثم عزم على الرجوع إلى قريته صبيحة الغد.

يقول والدي: وبعد أن تجاوزت مركز علة لم أستطع المشي من شدة الحجارة التي أدمت قدمي، وليس معي نعل، فسمعت صوتاً، فالتفتُ وإذا برجل راكب على حمار، مُحْمَلٍ بمتاع كاد يعجز عن حمله، فلما اقترب إذا هو عبد المحسن بن محمد الدويش رحمته الله وإذا هو يدعوني لأن أكون رديفه على الحمار، ففرحت أيما فرح، فلما ركبنا عجز عن حملنا فبرك على الأرض، فنزلت، وصرت مضطراً للمشي على هذه الحجارة، فلما رأى قدمي تتأذيان من الحجارة خلع نعليه، وأعطاني إياهما، فلبستهما فكأني راكبٌ على سيارة.

فتذكرت بكلام والدي هذا حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تقع شمال الزلفي، بينها وبينه ٣ كم.

قال: «استكثروا من النعال؛ فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل^(١)»^(٢).

يقول والدي: ومشيت بالنعلين حتى وصلنا إلى مكان افترقت فيه أنا وصاحبي، فأعطيته نعليه، ولا أنساها له. فمضيت حتى وصلت إلى الثوير؛ وأعطيت القماش لأمي - رحمها الله - فخاطت الثوب بيدها؛ إذ لا يوجد في ذلك الوقت محلات خياطة.

وإلى هنا انتهت هذه الحكاية، التي يحدث في الزمن الماضي مثلها وأشد منها الكثير والكثير، وهي تحكي تاريخاً عاشه آباؤنا، ينبغي لجيلنا أن يعرفه، كيف كابد ذلك الجيل شدائد الحياة، وخاضوا غمرات الحوادث، وركبوا أكتاف المضايق، وقطعوا المسافات المتطاولة بحثاً عن طعام أو لباس! فنستيقن في هذا الزمن قدر هذه النعم التي نتفياً ظلالها، ونعيش خلالها، فلنتأمل في أنفسنا كم للواحد منا من ثوب؟ وكم عنده من نعل؟ وكيف اقتربت المسافات؟ وعُبدت الطرقات؟ وكيف توفرت الأسواق والحاجات؟ وتنوعت المراكب والسيارات؟

- (١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٧٣/١٤): «معناه أنه شبيه بالراكب في خفة المشقة عليه، وقلة تعب، وسلامة رجله، مما يعرض في الطريق من خشونة وشوك وأذى ونحو ذلك».
- (٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٦).

إن هذا التأمل خليقٌ بأن يجعل المسلم يتطامن لربه المنان
 - سبحانه - فلا يزال مستحيياً من تقصيره بحقه، ولا يزال ذاكراً
 نعمته، معترفاً بمنتته، ماثلاً فاه بحمده وشكره.

فالحمد لله حمداً دائماً أبداً، حمداً لا يحصيه العدد، ولا
 يقطعه الأبد، وكما ينبغي له أن يحمد، واللَّهُمَّ أدم علينا سوابغ
 نعمك، واجعلنا من الشاكرين.



لا تحقرن من المعروف شيئاً

يقول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي تفسير هذه الآية يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: «هذا أدب من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإنَّ من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود»^(١).

تَفَسَّحُ في المكان لقادم أو محتاج فيفسح الله لك، فما معنى أن يفسح الله لك؟
قال ابن جرير الطبري: «يوسع الله منازلكم في الجنة»^(٢).

وقال القرطبي: «أي: في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسع عليكم في الدنيا والآخرة»^(٣).

وليس ثم مانع أن يكون جزاء الفسح هذه الأمور كلها؛

(١) تفسير السعدي (ص ٨٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٤٧٢/٢٢).

(٣) تفسير القرطبي (٢٩٩/١٧).

فالله - سبحانه - ذو الفضل العظيم؛ وهذا الذي اختاره جماعة من المفسرين، منهم الرازي فقال: «هو مطلقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة»^(١).

فلعلك أيها القارئ الكريم أن تتأمل هذا الثواب الكبير على هذا العمل اليسير!

مجرد الفسح في المكان، وهو عملٌ يسيرٌ لا يُكَلِّفُ جُهداً، ولا يَسْتَهْلِكُ وقتاً، ولا يَتَطَلَّبُ مالاً، ينال به الفاسحُ أن يُوسَّعَ له في بيته وورزقه وصدرة وقبره ومنزله في الجنة!

فما أعظم فضل الله، وما أجزل عطاءه، وما أكبر ثوابه!

وليست المسألة خاصة بالفسح؛ بل الأمر يشمل كل ما ينتفع به المسلم، يقول الرازي: «اعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس؛ بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور في قلبه»^(٢).

وفي وصية الرسول ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه يقول: «لا تحقرن

(١) تفسير الرازي (٢٩/٤٩٤)، وينظر: تفسير البيضاوي (٥/١٩٥)، وتفسير النسفي (٣/٤٤٩).

(٢) تفسير الرازي (٢٩/٤٩٤).

من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق^{(١)(٢)}.

وفي وصية الرسول ﷺ لجابر بن سليم رضي الله عنه يقول: «لا تحقرن شيئاً من المعروف، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط»^(٣).

فلا تحقرن انبساط وجهك لأخيك، وبشاشتك عند لقائه؛ فلا تدري فربما رضي الله عن عملك هذا، فكنت من الفائزين؛ فهنيئاً لذوي الوجوه المشرقة المنبسطة.

وفي السُّنة أمثلة لأعمال يسيرة نال أصحابها بها أجوراً كبيرة؛ فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له فغفر له»^(٤).

وفي رواية: «لقد رأيت رجلاً يتقلب^(٥) في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس»^(٦).

(١) قال النووي: «روي «طلق» على ثلاثة أوجه: إسكان اللام، وكسرها، وفتحها بزيادة ياء؛ ومعناه: سهل منبسط». ينظر: شرح صحيح مسلم (١٦/١٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٦٣٣)، وأبو داود (٤٠٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٥) أي: يتنعم في الجنة بملاذها بسبب قطعه الشجرة. ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي (١٦/١٧٧).

(٦) أخرجه مسلم (١٩١٤).

وجاء في رواية: «نزع رجلٌ لم يعمل خيراً قط غصنَ شوكٍ عن الطريق؛ إما كان في شجرة فقطعه وألقاه، وإما كان موضوعاً فأماطه، فشكر الله له بها، فأدخله الجنة»^(١).

ما أكرم الله، هذا الرجل يتقلَّب في الجنة بسبب غصنِ شوكٍ أزاله كان يؤذي الناس، فشكر الله له، فغفر له، فلا ينبغي لمريد الخير أن يحتقر إماطة حجر ونحوه عن طريق الناس، فربما كان ذلك طريقه إلى الجنة.

ومما ورد في السُّنَّة في ذلك ما رواه أبو هريرة - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال: «غُفِرَ لامرأةٍ مُومِسة^(٢)، مرَّت بكلبٍ على رأسِ رَكِيٍّ^(٣) يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خُفَّها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك»^(٤).

سبحان الله، ما أوسع رحمة ربنا، وأعظم مغفرته؟! غُفِرَ لبغيٍّ لأنها سقت كلباً كاد يقتله العطش!

فإذا كان الإحسان إلى الكلاب يغفر به الخطايا، فكيف يصنع الإحسان إلى من وَحَّدَ رَبَّ البرايا^(٥)؟! لا شك أن الرحمة به أحق وأجدر.

(١) أخرجهما أبو داود (٥٢٤٥).

(٢) المومسة: العاهرة المجاهرة. ينظر: فتح الباري (٢٠٧/١).

(٣) الركي: البئر المطوية. ينظر: فتح الباري (٧٧/١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٢١)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٥) جمع بَرِيَّة، وهم الخلق. ينظر: لسان العرب (٧١/١٤).

فركضاً إلى المعروف؛ فهو بوابة إلى تكفير السيئات .
ومما جاء في السُّنَّة أيضاً ما روته عائشة رضي الله عنها قالت :
جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات،
فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة؛
لتأكلها، فاستطعمتها ابتهاها، فشَقَّتْ التمرة التي كانت تريد أن
تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت
لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو
أعتقها بها من النار»^(١) .

لقد أوجبت هذه المرأة بسبب ثمرة جنة عرضها السموات
والأرض!

وفي حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول النبي ﷺ: «اتقوا
النار ولو بشق ثمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٢) .

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أنه أهدى لها سلة من عنب، فجاء
سائلٌ فأمرت له بحبة من عنب، ونسوة في البيت، فنظر بعضهن
إلى بعض، ففطنت لهن، فقالت: «هذا أثقل من مثاقيل ذر
كثير»^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٣) .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤٩٠/٨)، وابن زنجويه في الأموال
(١٣٢٥)، وأخرجه مالك في الموطأ (٢١٠٦) بلاغاً، فإن قيل: لم
تصدق عائشة رضي الله عنها بحبة واحدة، وهي الكريمة السخية السمحة؟ =

فينبغي للمسلم ألا يحتقر أمر الصدقة ولو كانت مجرد
 تمرة، فربما قبلها الله، فكانت طريقك إلى السعادة العظمى.
 والخلاصة أن الموفق هو من يسارع إلى المعروف؛ لا
 يحتقر منه قطميراً؛ لأنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها.
 ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مذاقُهُ فحلُّوْ وأمّا وجهه فجميلٌ^(١)



= أجب ابن عبد البر في الاستذكار (٦٠٣/٨) فقال: «من اعتاد
 الصدقة تصدق مرة بالكثير، ومرة باليسير، ألا ترى أن عائشة في
 الحديث قبل هذا آثرت السائل بفطرها كله، وفي هذا الحديث
 أعطته حبة عنب»، وقال الرازي في تفسيره (٢٥٧/٣٢): «لعلها كان
 غرضها التعليم، وإلا فهي كانت في غاية السخاوة».

(١) البيت لأبي العيناء في ديوانه (ص ٤٥)، ونسب إلى غيره.

لا أنساها لطلحة

إدخال السرور على المؤمنين هبة يمن الله بها على من شاء من عباده، والمرء الذي يفرح لفرح أخيه، ويسعى جهده لكي يدخل السرور عليه دون أي مصلحة يرجوها منه رجلٌ عظيم النفس، فخيم الشأن؛ يأوي إلى إيمان صادق، وينزع إلى مروءة تامة، ويحمل بين جنبه نفساً طاهرة، وسريرة صالحة.

وإن سبل إدخال السرور على المؤمن كثيرة ومتعددة، ومن رامها فُتحت له أبوابها، وإن من تلك الأبواب تهنئة الناس بأفراحهم، ومشاركتهم أتراحهم.

وإنك لترى من بعض الناس من ترى أنه قد فتح له في هذا الجانب، لا يرى مستحقاً للتهنئة إلا هنأه، ولا مصاباً إلا عزاه، ولا محزوناً إلا استمع له وأعانه وواساه، لا يشغله عنه أعباء، ولا يطلب عليه جزاء؛ فهنيئاً لهؤلاء عون الله وتوفيقه؛ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وبين يديك - أيها القارئ الكريم - موقف يسير، ولكن أثره عظيم كبير، يحكيه الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه عن نفسه، فكعب رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، فلما كبرت سنه، وكُفَّ بصره ذكر قصته، وأحداث

تخلفه، وتوبة الله عليه وعلى صاحبيه، فلا يُغفل ذكرَ معروف أسدي إليه، قد رسخ في ذاكرته، وانتقش في قلبه، فهو يحدث به وقد مضى عليه أكثر من أربعين عاماً.

فيا ترى، ما هذا المعروف العظيم الذي ما نسيه كعب رضي الله عنه؟ هل أنقذه أحدٌ من مهلكة؟ أم أطعمه امرؤٌ في يوم ذي مسغبة؟ أم قضى له إنسان حاجة كانت عصيةً مستغلبة؟

كلا، لم يكن شيء من ذلك؛ بل هو أيسر من ذلك بكثير، حكاه كعب نفسه، لا يجاوز سطرًا واحداً عند كتابته، مما يدل على أن مدته الزمنية لم تتجاوز دقيقة تقريباً.

فقد ذكر كعب رضي الله عنه أن الناس جاؤوا يبشرونه بتوبة الله عليه وعلى صاحبيه، فانطلق رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس يلقونه فوجاً فوجاً، يهئونه بالتوبة، حتى دخل المسجد، يقول كعب: فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره.

ثم قال كعب: «ولا أنساها لطلحة»^(١).

فقط مجرد مبادرة طلحة رضي الله عنه وقيامه لكعب مصافحاً مهئناً، هي التي فعلت في قلب كعب ما فعلت، وجعلته لا ينسى قيامه؛ بل لا ينسى هرولته.

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

إنه موقف يسيرٌ جداً يوفق الله لمثله بعض عباده، يورث ذكراً لا يُنسى، وحباً دائماً لا يبلى.

فلا تحقرن تهنئة تبذلها لأخيك بسبب خير ناله، واحذر أن يدور بخلدك بأن المهنئين كثير فتتقاعس عن بذلها، فقد يكون ظنك غير صحيح، فربّ مستحقّ تهنئة، ولا طلحة له، فهورول نحو صاحبك المسرور في لحظته الأولى مهنئاً؛ فربّ تهنئة في مكالمة لا تستغرق سوى بضع ثوان، ثم تنسى الأمر وصاحب الشأن لا يزال يردد، لا أنساها لفلان.

ويدخل في ذلك - أيضاً - مشاركة الناس أتراحهم؛ فالرجل الموفق من يحرص على تثبيت المصابين، وإسعاد المحزونين؛ فتراه يزور هذا المريض، ويعزي ذاك المصاب، ويواسي ذلك المكلوم، ويجبر خاطر المكسور المظلوم؛ فلذلك أثر عظيم في النفوس؛ ففي خضمّ حادثة الإفك التي رميت بها عائشة رضي الله عنها كذباً وزوراً، تحكي عائشة تفاصيلها فلا تنسى موقف امرأة من الأنصار، استأذنت عليها، فأذنت لها، فجلست تبكي مع عائشة؛ تفجّعا لما نزل بعائشة، وتحزّناً عليها! ^(١).

فلولا أثر بكاء هذه المرأة في نفس عائشة رضي الله عنها لم تذكر عائشة خبرها! ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) اشتهر كثيراً في مواقع التواصل أن عائشة قالت عن موقف هذه =

إن مشاركة الآخرين في أفراحهم وأتراحهم خُلُقٌ إسلامي عظيم، يدلُّ على سموِّ نفس، وعظمة قلب، وسلامة صدر، ورجاحة عقل، فهنيئاً للمشاركين!

فرب ابتسامةٍ بذلتها لأخيك في فرحه، أو دموعٍ ساحت على خدك في مصابه، أو كلمةٍ بذلتها له في حزنه، قد شيدت في قلبه قصرًا من المودة لك وأنت لا تشعر، فركضاً إلى إسعاد المشاعر، وجبر الخواطر؛ فذلك فعل الأماجد الأكابر.



= الأنصارية التي بكت: «لا أنساها لها»، وهذه اللفظة ليست موجودة في كتب السُّنة.

الشفاعة الحسنة

في أول شهر من تعييني معيداً في قسم السُّنة في كلية الشريعة بالقصيم أتاني أحدهم محسناً بي الظن، يطلب مني الشفاعة لابنه حتى يدخل الكلية، فأخبرته بأنني أعرف ابنه وصلاحه واستحقاقه، ولكن لِتَوَيَّ قد قُبِلْتُ في الكلية، فلست أملك ذاك الجاه الذي تقبل فيه شفاعتي، فأخذ يُلحُّ علي، ويقول: بلى تقدر!

وبعض الناس يحسب أن الموظف إذا كان في قطاع أو دائرة فإن بيده الحل والعقد، والقبول والتوظيف!

وظفّق هذا الرجل يلح عليّ، ويذكر ظروفه المرّضية، فاستحييت منه؛ إذ أنا في سن أولاده، وقلت له: خيراً - إن شاء الله - فودعني، وقد احترت في أمره، لا أدري ما أصنع، وبينما أنا أفكر في موضوعه إذ جاء طيف الشيخ علي الجمعة ماثلاً أمامي - وكان وقتها رئيس قسم السُّنة - فقلت في نفسي: لم لا أطلب من الشيخ الشفاعة؛ فالشيخ له جاهه، وقد آتاه الله من كرم الأخلاق، ولين الجانب حظّاً وافراً، فلما جاء صباح الغد أتيت الشيخ وكلمته، فرأيت صديقاً رحيماً، ولساناً عذباً، وقال: تعرف الطالب وتزكيه؟ قلت: نعم، فنأدى كاتبه، وكتب

شفاعة إلى المسؤول عن القبول، فسرعان ما قبل الطالب، ودهشت من كرم هذا الشيخ الكفيف وسرعة إجابته، فرحم الله تلك الطلعة الغراء، وصرت بعدها أتجرؤ على الشيخ في طلب الشفاعة الآخرين، فلا أراه يثقل عليه شيء من ذلك؛ بل يبادر مسروراً، وهذا عمله معي ومع غيري، فرحمه الله، وضاعف مثوبته.

وقبل مدة أرسل لي أحد الزملاء^(١) ترجمة أحد الفضلاء لوالده، يقول فيها: «رأيت والدي بعد موته بأشهر على حال حسنة، فقال لي: إنه فسح له في قبره مد بصره، وأن ذلك بسبب حفظه للنعمة، قال: وأخبرني أن معهم الشيخ علي الجمعة، وأنه غفر له بسبب شفاعته للناس!»^(٢).

فتعجبت من ذلك، وهذه الرؤيا من المبشرات، ورحم الله شيخنا علي الجمعة.

والشفاعة الحسنة ندب إليها الله في كتابه، فقال - سبحانه -: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وذوو الجاه في بذل الشفاعة أقسام ثلاثة:

■ فمنهم من أغلق بابَه دونها، فلا يشفع في نكير ولا قطمير، ولا صغير ولا كبير، وربما عدَّ ذلك عدلاً وسلاماً وكمالاً، وما علم أنه محروم.

(١) هو: الزميل الفاضل د. صالح القريري.

(٢) سيرة صالح بن علي الشويهي لابنه الشيخ أحمد (ص ٢١).

■ ومنهم من يبذلها، ولكن لا يبذلها إلا لمن يرجو من ورائه مصلحة، فتراه يتحرى ذوي الجاه والمال، فإن لم يكن ثم مصلحة ثقلت عليه جداً، ولم تقوَ نفسه على بذلها!

■ ومنهم من يبذلها مسروراً، ويعطيها لمستحقها سواء أكان مشهوراً أم مغموراً، شعاره: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُبِدُّ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]؛ فهذا خير الثلاثة.

وعلى رأس من أعطي من الشفاعة الحسنة حظاً وافراً في زماننا العلامة عبد العزيز بن باز - فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يكل ولا يمل من بذل الشفاعة، وأخباره في ذلك مشهورة.

وربما امتنع بعضهم من الشفاعة الحسنة مخافة أن ترد شفاعته، فتكون سبباً للحرَج بينه وبين المشفوع عنده، وهذا في الحقيقة ليس سبباً وجيهاً لترك الشفاعة، فقد روى أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا؛ ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»^(١).

ومعنى الحديث الحث على الشفاعة، وأن الأجر حاصلٌ بها؛ سواء أقبلت أم لم تقبل.

والرسول ﷺ لم تقبل بريرة شفاعته لما شفع بأن ترجع إلى زوجها مغيث؛ فإنها لما عتقت خيرها رسول الله ﷺ فاخترت نفسها، فأخذ مغيث يطوف خلفها يبكي، ودموعه

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعمه العباس: «يا عباس ألا تعجب من حب مغيثٍ بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً» فقال النبي ﷺ: «لو راجعته» قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه^(١).

وربما التبس عند بعضهم أمر الشفاعة الحسنة بالشفاعة السيئة؛ والفرق بينهما بين؛ فبذل العون لإنسان في حيازة حق، أو دفع ظلم، أو نيل خير مستحق هي الشفاعة الحسنة؛ في حين أن الشفاعة السيئة هي الاعتداء على حقوق الآخرين وظلمهم بتقديم شخص على آخر بغير حق، أو إعطاؤه شيئاً وهو ليس أهلاً لأخذه، أو الإضرار بالمصلحة العامة.

والخلاصة: رحم الله من نفع الناس ولو بشرط كلمة.



(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

تلك صدقةٌ يُغفل عنها

لا أنسى في رمضانٍ مضى - وبالتحديد في ليلة السابع والعشرين منه - رجلاً يبادر بالسلام على آخر، وهذا الآخر يصد عنه، ويستنكف منه، فلا يمد يداً، ولا ينطق كلمة، ولا يرفع رأساً، فأعجلت إلى الرجل، فشفت بقبول السلام، فأصر على الإباء، وجمح إلى هواه، وقال لي: إنك لا تدري ما صنع بي، فذكرت له بركة هذه الليلة، وبركة الشهر، وعزمت عليه أن يعفو، فقام ولم يفعل، وقال: أخبرك فيما بعد، فاستفصلت فيما بعد عن القضية، وكنت أظنها قضية تنوء بحملها الجبال الراسيات، وإذا بي أفاجاً بأنها قضية تافهة جداً، يضحك منها الصبيان، ولكن الشيطان صعد فيها وصوب، فانجلت عن فراق وسوء أخلاق.

أيها الأصبه: إن الله - جل في علاه - إذا أراد بالعبد خيراً غرس فيه طباع الخير، فيبذلها بلا كلفة، أسلس من الماء، وصار كما قال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيْئٍ لَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٣٩٣٨)، والترمذي (٢٤٨٨) وحسنه.

وإذا صرف الله العبد عن المكارم عسرت أخلاقه، وغلظت طباعه، واشتد على الناس مخالطته، وقد قال الرسول ﷺ: «لا خير فيمن لا يَأْلُف ولا يُؤْلَف»^(١).

وإن أمر الصدقة بالعرض ليست بأهون من الصدقة بالمال، ولكنها صدقة يغفل عنها الناس، وقد روى أبو هريرة أن رجلاً من المسلمين قال: «اللَّهُمَّ إنه ليس لي مال أتصدق به، وإني جعلت عرضي صدقة. قال: فأوجب النبي ﷺ أنه قد غفر له»^(٢).

وإنها لمنقبة عظيمة لا يوفق لها إلا الصابرون الذين سهّل الله عليهم فعل الفضائل والمروءات تسهياً؛ فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته، وعدم العفو عنه؛ ولذا قال الله - سبحانه - عنها: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٣٥) [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ولما تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا النوع من الصبر قال: «هذا النوع يصعب الصبر عليه جداً؛ لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا

(١) أخرجه أحمد (٩١٩٨).

(٢) أخرجه أبو أحمد الحاكم في الأسامي والكنى (٢٠٢/٥)، وصححه ابن حجر في الإصابة (٤٥١/٤).

يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون»^(١).

ثم قال: «وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والهدى والسرور والأمن، والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله، ومحبة الناس له، وزيادة العلم»^(٢).

والآيات والأحاديث الواردة في العفو مشهورة معلومة؛ ويكفي محفزاً على العفو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فإنه لو قيل لمن وقع عليه الخطأ: اعف وحقك علينا، وكان القائل باذلاً مقتدرًا لوجدت كثيراً من الناس يسارع إلى العفو، حتى ولو كان الخطأ قصاصاً؛ فكيف بالله رب الأرباب، ومسبب الأسباب يقول: ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ولذا يقول العلامة السعدي: «في جعل أجر العافي على الله ما يهيئ على العفو»^(٣).

ويقول أبو السعود عن معنى هذا الأجر: «عِدَّةٌ مبهمَةٌ منبئةٌ عن عِظَمِ شأنِ الموعود، وخروجه عن الحد المعهود»^(٤).

وقد كانت هذه الآية سبباً في عفو الإمام أحمد عمن ظلمه، فقد نقل عنه ابنه صالح أنه قال: «مررت بهذه الآية:

(١) قاعدة في الصبر (ص ٧٨).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٣).

(٣) تفسير السعدي (ص ٧٦٠).

(٤) تفسير أبي السعود (٣٥/٨).

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فنظرت في تفسيرها، فإذا هو ما حدثني به هاشم بن القاسم، حدثني المبارك، حدثني من سمع الحسن يقول: إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين يوم القيامة ونودوا: ليقم من أجره على الله وَعَلَيْكَ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا. قال: فجعلت الميت في حل من ضربه إياي، ثم جعل يقول: وما على رجل ألا يعذب الله تعالى بسببه أحداً^(١).

وهذا الأجر مطلقٌ يشمل خير الدنيا والآخرة؛ وقد عفا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن المسلمين الذين قتلوا أباه في غزوة أحد، وقال: يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، وتصدق بديته على المسلمين^(٢).

يقول عروة بن الزبير: «فوالله ما زالت في حذيفة منها بقيةٌ خيرٍ حتى لقي الله وَعَلَيْكَ»^(٣).

قال الحافظ ابن حجر: (قوله: «ما زالت في حذيفة منها»؛ أي: من هذه الكلمة؛ أي: بسببها، وقوله: «بقية خير» يؤخذ منه أن فعل الخير تعود بركته على صاحبه في طول حياته)^(٤).

(١) سيرة الإمام أحمد برواية ابنه صالح (ص ٦٤ - ٦٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٨٨/٢)، وأصلها في صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري (٣٢٩٠).

(٤) فتح الباري (١٣٢/٧).

فليهنأ من كانت المسامحة سجيته، وصفاء القلب طبيعته
ببركة الحياة ولذتها :

إذا ضاق صدر المرء لم يَصِفْ عيشه وما يستطيب العيش إلا المسامح^(١)

وهنا مسألة مهمة يحسن إيضاها عند الكلام على العفو،
قد تشكل على بعض الناس، وهي: هل العفو عن أذى الناس
محمود مطلقاً؟

فيقال: إن العفو المأمور به إنما هو في الهفوات التي لا
تمس ديناً، ولا تورث شراً، وإنما هي حقوق شخصية.

أما العفو للموغل في الشر، والتمادي في الأذى، فهذا
لا ينبغي فعله؛ فإن الله سبحانه قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

يقول العلامة ابن عثيمين معلقاً على الآية: «فيها إشارة
إلى أن العفو لا يُمدح إلا إذا كان من الإحسان؛ وذلك بأن يقع
موقعه ويكون إصلاحاً، فأما العفو الذي تزداد به جريمة
المعتدي، فليس بمحمود ولا مأجور عليه»^(٢).

وقال في قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾
[الشورى: ٤٠] «فجعل العفو مقروناً بالإصلاح؛ فدل على أنه إذا
لم يكن في العفو إصلاح فإن العفو لا يحسن؛ وذلك بأن يكون

(١) البيت لأبي العتاهية، كما في ديوانه (ص ٥٩).

(٢) مجالس شهر رمضان (ص ١١٦).

هذا الجاني معروفاً بالشر والفساد، فلو عفوت عنه لتمادى في شره وفساده فالأفضل في هذا المقام أن تأخذ هذا الرجل بجريته؛ لأن في ذلك إصلاحاً^(١).

ولذا لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة»^(٢).

وجاء عن الإمام أحمد أنه جعل مَنْ ظَلَمه في حِلٍّ إلا ابن أبي دؤاد، وقال: «لولا أن ابن أبي دؤاد داعية لأحلّته»^(٣).



-
- (١) مكارم الأخلاق، لابن عثيمين (ص ٢٧).
- (٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (٤٠٦٧)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (١٥٣/٩).
- (٣) الآداب الشرعية (١/ ٧٠ - ٧١).

المروءة البكرية

من التوفيق العظيم لطالب العالم أن يكون مع علمه صاحب مروءات؛ يسدي المعروف، ويواسي المحتاج، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق.

وهذا المرتقى ليس كل من طلبه ناله، وليس كل من تمناه أتاه؛ إذ المروءات قليلة الأولاد؛ فهي شديدة المطلب، منيعة الجانب؛ وقد وصفها أبو الطيب بأنها تؤذي؛ وذلك حين قال:

تَلْذُّ له المروءة وهي تُؤْذي ومن يَغرم يَلْذُّ له الغَرامُ^(١)

وإذا تأملت سِيرَ سادات أهل العلم فإنك تجد المروءات وصنائع المعروف مقرونة بسيرهم؛ وممن اشتهر بذلك الإمام أبو حنيفة، فقد كان بذولاً معطاءً فياضاً، ومن عجيب ما يذكر عنه أنه كان يبعث بالبضائع إلى بغداد، فيشتري بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياء المحدثين، وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: «أنفقوا في حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما

(١) ديوان المتنبي (٧٥/٤).

أعطيتكم من مالي شيئاً، ولكن من فضل الله علي فيكم، وهذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي؛ فما في رزق الله حولٌ لغيره»^(١).

وممن اشتهر بذلك - أيضاً - الإمامان عبد الله بن المبارك، والليث بن سعد، وقصصهم في كتب التراجم مشهورة.

وكان البخاري لا يفارقه كيسه، يأخذ صاحب الحاجة من أهل الحديث بيده، فيناوله البخاري ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد.

ومرة ناول رجلاً صرة فيها ثلاث مائة درهم، فأراد الرجل أن يدعو، فقال له البخاري: ارفق، واشتغل بحديث آخر؛ كيلا يعلم بذلك أحد^(٢).

وقد كان الإمام مسلم يلقب بـ: «محسن نيسابور»^(٣).

وقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية من ذلك بحظ وافر؛ فقال عنه الذهبي: «وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه، وقلمه»^(٤).

(١) تاريخ بغداد (١٥/٤٨٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٥٠).

(٣) العبر، للذهبي (١/٣٧٥).

(٤) العقود الدرية، لابن عبد الهادي (ص ١٣٤).

وسيرة الإمام ابن باز في بذل المعروف حافلة، فهو ابن بجدة، وطلاع أنجده.

وما قصة اشتراء العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ بيتاً للعلامة عبد القادر الأرناؤوط رَحِمَهُ اللهُ إلا من هذا القبيل^(١)، والقصة حقيق أن يحتفى بها، فيوسع نشرها، ويداع خبرها؛ فهي درس في المروءة يغني عن كثير من دروس التنظير.

وقد كنت مع بعض الأصحاب في زيارة لجمهورية كوسوفا، فالتقينا الشيخ عبد القادر بن محمود بن عبد القادر الأرناؤوط^(٢)، فطلبت منه الحديث عن هذه الحادثة التي حصلت مع جده؛ إذ أهل البيت أدرى بما فيه، ففضل الشيخ عبد القادر بسرد ذلك؛ فرأيت أن أكتب روايته؛ لما فيها من علو السند؛ والله المستعان.

ففي مطلع عام (١٤١٤هـ) زار الشيخ بكر أخاه الشيخ عبد القادر في سوريا، وكانت هذه هي الزيارة الأولى، فوافاه الشيخ بكر في شقته في منطقة يقال لها: أبو حبل، تقع في حي الميدان، وكانت الشقة تقع في ممر ضيق، لا تكاد تعبر معه السيارة، وكانت الشقة مكونة من ثلاث غرف، ودورة مياه، وصالة، وكانت عائلة الشيخ عبد القادر كبيرة، وقد اتخذ إحدى

(١) القصة مدونة على سبيل الاختصار في ملتقى أهل الحديث، وأثبتها الدكتور علي العمران في كتابه نثار السيرة (ص ١١٩).

(٢) ثم أكد لي القصة الأستاذ محمد ابن الشيخ عبد القادر بعد ذلك.

هذه الغرف الثلاث مكتبة له، وكانت تحفل دوماً بطلاب العلم والمستفتين.

وفي ختام هذه الزيارة ذكر الشيخ بكر بأنه كثير الزيارة لسوريا، وأنه يريد أن يتخذ فيها سكناً يكون مقرّاً له، وطلب من الشيخ عبد القادر أن يُعمل البحث عن أفضل سكن في أفضل حي؛ فرحب الشيخ عبد القادر بالفكرة، وطفق يبحث عن طلبه، فوقع على بيت ذي مواصفات عالية، يقع في كورنيش الميدان، أفضل مكان في الميدان، فأخبر الشيخ بكرًا بذلك، ثم جاء الشيخ بكر، فذهب به الشيخ عبد القادر إلى البيت، فمشى الشيخ بكر فيه، فرآه وسرَّ به، وفاجأ الشيخ عبد القادر بقوله: هذا البيت هدية مني لكم يا شيخ عبد القادر؛ فإني لما زرتكم وجدت بيتكم يضيق بالطلاب والمستفتين، وأنتم مأوى للناس، فلعلكم أن تتوسعوا بهذا البيت، فكان شعور الشيخ عبد القادر بهذه الهدية العظيمة يقصر الوصف دونه، وتأمل حال الكريم إذا أكرمه كيف تكون.

وقد كان هذا البيت للشيخ عبد القادر بمثابة حبيب جاء على فاقة، وطلب الشيخ بكر من الشيخ عبد القادر كتمان الأمر، فلم يستطع الشيخ ذلك لعظم هذا المعروف، ورأى أن من الوفاء للشيخ بكر أن يذكر القصة حتى يدعو الناس له، ولم يزل الشيخ عبد القادر إلى أن توفي ممتناً للشيخ بكر، ذاكرًا

نعمته هاته، موصياً أولاده دوماً بالدعاء له، وما أجمل المعروف حين يصيب أهله.

فأكرم بطالب علم تكون هذه المعاني حاضرة عنده؛ ولقد أوصى بها الشيخ بكر رحمته الله في كتابه «حلية طالب العلم» بقوله: «تمتع بخصال الرجولة من الشجاعة، وشدة البأس، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال»^(١).

وكما يتعلم طالب العلم مسائل العلم؛ فحقيقٌ به أن يتعلم أصول المروءة، وخصال الرجولة؛ فذلك من كمال العلم وتمامه؛ وما أجمل أن يكون في الدورات العلمية دروس وعناية بهذا الشأن، وكلُّ ينفق من سعته، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، وليسعد النطق إن لم تسعد الحال.



متفائل ومتشائم

تأمل في الناس، ستجد فيهم صنفين؛ إنسان ساخط متشائم، قد ضيق أمره، وأشقى عمره، ينظر إلى الحياة من سَمِّ إبرة، وإنسان شاكر متفائل، قد أحسن الفكرة، ووسع النظرة، وشرح صدره.

يتزوج نبي الله إسماعيلُ عليه السلام مرتين، فيأتيه أبوه إبراهيم عليه السلام في مكة زائراً، فلا يجده، ويجد امرأته فيسألها عن عيشهم؟ فتقول: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، وتشكو إليه! فلا يرضى إبراهيم شكواها، فيأمر إسماعيل أن يطلقها، فطلقها إسماعيل، وتزوج بأخرى، ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجد إسماعيل، ووجد امرأته، فسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فيأمر إبراهيم ابنه إسماعيل أن يمسكها^(١).

الزوج واحد، والعيش واحد، لكن الأولى كانت نظرتها سلبية فضجرت وشكت، والأخيرة كانت نظرتها إيجابية فحمدت الله وأثنت.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

فسل نفسك، ما نظرتك إلى الحياة، هل هي نظرة تفاؤل وإيجابية؟ أم نظرة تشاؤم وسلبية؟ وبناء على نظرتك يكون معيار سعادتك، وقد لخص الأمر ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «الله بقسطه وعلمه جعل الرُّوح^(١) والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط»^(٢).

وإن مما يُستجلب به التفاؤل، ويملأ القلب رضاءً وسروراً هو أن يتفكر الإنسان في الموجود، ولا يتطلب المفقود.

ومن تأمل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم مُعافى في جسده، آمناً في سربه»^(٣)، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»^(٤)، وجد نفسه غارقاً في النعم إلى الأذقان، ويكفي أن تتأمل في قوله: «قوت يومه» ولم يقل: قوت شهره، ولا قوت عامه!

وبهذا النظر عاش الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - فقد جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يشكو حاله، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله:

-
- (١) الرُّوح: الاستراحة من غم القلب. ينظر: تهذيب اللغة (٥/١٣٩).
 (٢) أخرجه هنادي في الزهد (١/٣٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٢٢٢).
 (٣) قال المناوي في فيض القدير (٦/٦٨): «بكسر السين على الأشهر؛ أي: في نفسه، وروي بفتحها؛ أي: في مسلكه، وقيل: بفتحتين؛ أي: في بيته».
 (٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١) وحسنه الترمذي.

ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك^(١).

إن هذا التأمل خليقٌ بأن يجعل المسلم متفائلاً في الحياة، معترفاً بعظمة نعم ربه، ذاكراً لها - مهما كانت أحواله وظروفه -.

أما الإنسان المتشائم فقد يملك كثيراً من مقومات المتعة والسعادة، لكنه لا يعيش السعادة، ولا يستمتع بما أوتي! ما سبب مشكلته؟ ما علة شقاوته؟

تجدها في قول الرسول ﷺ: «ليس الغنى بكثرة العَرَضِ^(٢)، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ^(٣)».

فقد يملك أموالاً طائلة، ودنيا وافرة؛ وصحة وعافية، ومع ذلك نفسه ليست راضية؛ بل دوماً ساخطة شاكية باكية، تريه الزهرة فيريك شوكتها، وتعرضُ عليه الماء فيريك فيه القذى، وتمدحُ له الشمس فيشكو حرارتها، وتريه جمال البدر

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).

(٢) قال النووي في شرح مسلم (١٤٠/٧): «بفتح العين والراء، وهو متاع الدنيا، ومعنى الحديث: الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه، فليس له غنى».

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

فيريك سواد الليل؛ لا يرى إلا الجانب السيئ، ويعمى عن الجانب المشرق.

وهذا هو الإنسان الكنود الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

قال الحسن البصري: «هو الكفور الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه»^(١).

وفي هؤلاء يقول ابن القيم: «ليس على العبد أضر من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها؛ بل يسخطها ويشكوها ويعدّها مصيبة؛ هذا وهي من أعظم نعم الله عليه؛ فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون...»^(٢).

وصدق إيليا أبو ماضي في قوله:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الحياة شيئاً جميلاً^(٣)

بل إن الإنسان المتفائل ينظر إلى البلايا كأنها عطايا، ويبصر المحن الشديدة على أنها منح حميدة، ويحول الخسائر العظيمة إلى أرباح كبيرة، ثقة بالله ربه، وإحساناً للظن به، وبقيناً بقول رسوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير،

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٨٥/٢٤).

(٢) الفوائد (ص ١٨١).

(٣) ديوان إيليا أبو ماضي (ص ٨١).

وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاءٌ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءٌ، صبر فكان خيراً له»^(١).

وهذا موطنٌ لا يهدى له إلا رجلٌ ذو حظٍّ عظيمٍ من توفيق الله ورعايته.

ابتلي التابعي الجليل عروة بن الزبير رضي الله عنه ببلاءين في وقت واحد، ضربت دابةً ابنه محمداً، فخرّ ميتاً، وأصابته الآكلة قدمه فقطعت، فأتته قريش والأنصار يعزونه في ابنه ورجله، فكان يقول لهم: «ما أحسن ما صنع الله إلي، وهب لي سبعة بنين، فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستّة، ووهب لي ست جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحداً، وأبقى لي خمسة، يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً» ثم قال: «اللَّهُمَّ، لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت»^(٢).

والإنسان المتفائل ذو نظرة موضوعية في أحكامه على الناس، فيعاملهم معاملة واقعية، مقدراً الطبيعة البشرية التي يعترها الجهل والخطأ والنسيان، فهو كثير الاعتذار لهم فيما يسع فيه الاعتذار، ولا يسقطهم من قاموس الإخاء بسبب خطأ أو هفوة.

أما الإنسان المتشائم فلا يعجبه أحد من الناس، فهو

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) أخرج القصة الإمام أحمد في الزهد (٢١٧٢).

ساخط على رئيسه في العمل، وشاك من جاره في السكن، وهو غير راضٍ عن إمام مسجدهم، وضائق صدره من مؤذن الحي، وهو عاتب على زوجته وأولاده، وهكذا لا يسلم له الدهر صاحب.

وحين تنزل الشدائد بأهوالها، تجد المتشائم ضعيف اليقين، سيء الظن بربه، ففي غزوة الخندق، تجمع الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ وحوصر المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، فقال أصحاب النفوس المتشائمة الشاكية: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، فكان قائلهم يقول: «محمدٌ يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقیصر، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب يقضي حاجته»^(١).

أما ذوو النفوس المستبشرة المتفائلة الزاكية، فقال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون في الشدائد متفائلاً مستشرفاً لوعد الله، ولا ينبغي له أن يقتله الحزن إذا فعل ما يقدر عليه، فهذه وصية الله ﷻ لنبیه ﷺ إذ قال له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي صَبَقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٥٢٢/١).

والخلاصة أن من أراد أن يستمتع في حياته، فليكن إيجابياً متفائلاً معطاءً، يعمل بحسب استطاعته، ولا يتسخط من شيء ليس من جهده وطاقته؛ بل يتعايش مع أحواله التي لا يقدر على تغييرها، ويستشرف الجانب المشرق فيها، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمة الله، ولا يفتر طالباً عون الله، وليبشر بأنه إذا كان كذلك، فإن القادم في حياته وآخرته سيكون أجمل وأفضل وأسعد بإذن الله.



حماسة الشباب، وروية أهل العلم^(١)

إن من ورطات الأمور التي مالت بكثير من الشباب إلى فكر الغلو هو الحماسة غير المنضبطة، وتغليبها على نداء الشرع والعقل.

فتجد من هؤلاء من يرى ما حل بالمسلمين من المصائب، فيبلغ به الغضب مبلغه، فيجتهد لنفسه، فيخوض فيما لا يحسن من النوازل، ويتفوه بالكلام في صعاب المسائل، ويزري بأهل العلم الأكابر، ويخوض غمرات الردى، ويركب شذائد الأهوال، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، وهو قد فعل منكراً، وكم غضبة أقحمت صاحبها مقحماً ما استقاله.

والحماسة إن لم تحكم بسياج الشرع، وتزَمَّ بزمام التقوى، وتضبط برأي أصحاب الشأن، فإنها تنقلب إلى ريح قاصف، وزلزال مدمر.

ومما يحضر في هذا الشأن حادثة وقعت زمن النبي ﷺ تأججت فيها العواطف، واغتازت منها الصدور، وبلغ الحنق

(١) كتب المقال بعد أحداث التفجيرات التي ابتليت بها بلادنا، حفظ الله عليها أمنها وإيمانها.

والغم في نفوس الصحابة مبلغاً عظيماً، فما هذه الحادثة؟ وكيف تعامل النبي ﷺ معها؟

في العام السادس من الهجرة رأى رسول الله ﷺ منامه أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأنهم يطوفون بالبيت، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بذلك، ففرحوا فرحاً شديداً؛ إذ رؤيا الأنبياء حق، وكان قد اشتد بهم الحنين إلى البيت، وهزهم الشوق إلى لقاءه، وتطلعت قلوبهم لأداء النسك، فخرج النبي ﷺ في شهر ذي القعدة من هذا العام السادس، هو وأصحابه، وعددهم ألف وأربع مئة من المهاجرين والأنصار، وكلهم شوق للطواف بالبيت الذي غابوا عنه زمناً، فلما كانوا تلقاء الحديبية إذ بنى الله ﷻ يأتيه الخبر بأن قريشاً جمعوا له جموعاً، وجمعوا له الأحابيش، وهم مقاتلوه وصادؤه عن البيت ومانعوه.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال: «أشيروا أيها الناس عليّ أترون أن أميل إلى عيالهم، وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدّونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محروبين؟» فأشار عليه أبو بكر فقال: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «امضوا على اسم الله».

فمضى النبي ﷺ ومعه أصحابه باتجاه مكة حتى نزلوا

بالحديبية، فأخذت قريش ترسل الرجل تلو الرجل يفادون
النبي ﷺ، فكان آخر من أرسلت سهيل بن عمرو، ففاوض
النبي ﷺ على اتفاق سمّي في التاريخ صلح الحديبية، يقضي
بأن تكون هناك هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن
يرجع المسلمون إلى المدينة هذا العام فلا يقضوا العمرة إلا
العام القادم، وأن يرد محمد ﷺ من يأتي إليه من قريش مسلماً
دون علم أهله، وألا ترد قريش من يأتيها مرتداً.

وبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو
يرسّف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين
أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك
عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»
قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ:
«فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيزه لك. قال النبي ﷺ: «بلى
فافعل» قال: ما أنا بفاعل. فأعاده النبي ﷺ للمشركين، فقال
أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونني في
ديني، وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد
عذب عذاباً شديداً؟!

فقال له النبي ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب؛
فإن الله ﷻ جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً
ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على
ذلك، وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم».

وافق الرسول ﷺ على شروط المعاهدة، التي بدا لبعض الصحابة أن فيها إذلالاً للمسلمين، ومنهم عمر رضي الله عنه الذي قال للنبي ﷺ: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ فقال الرسول ﷺ: «بلى»، قال عمر: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال الرسول ﷺ: «بلى»، فيقول عمر: فلم نعط الدنية في ديننا إذا؟ فيجيبه الرسول ﷺ بقوله: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري» فيقول عمر: أوليس كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ فيقول النبي ﷺ: «بلى، فأخبرتكم أننا نأتيه العام؟» فيقول عمر: لا. فيقول النبي ﷺ: «فإنك آتية ومطوف به»، ثم أتى عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر - فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فأجابه أبو بكر بمثل ما أجاب النبي ﷺ.

إنه مشهد عصيب، وموقف رهيب، تعيَّظ فيه المسلمون، وبلغ منهم الجهد، حتى إن النبي ﷺ أمرهم بالنحر والحلق حتى يتحللوا، فلم يفعلوا، فاستشار زوجه أم سلمة، فأشارت إليه أن يعمد إلى هديه فينحره، ثم يحلق، ففعل، فنحر الناس وحلقوا، فكاد بعضهم عند الحلق يقتل بعضاً من الغم والكآبة.

ولكن الصحابة - رضوان الله عليهم - وهم الصفوة المؤمنة لم يجروا أحد منهم أن يخالف الرسول ﷺ، أو يرد عليه أمره، وإنما هي رؤى خالجت صدورهم، هم فيها معذورون، حتى مراجعة عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ؛ فإنه ما زاد على

أن رد الأمر إلى رسول الله ﷺ يسترشده ويستهديه، ثم طابت نفسه بعد ذلك ورجع.

فماذا كانت العاقبة؟

لقد نزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح مرجعه من الحديبية، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياها فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه ورجع^(١).

وكان ما حصل في هذا الصلح درساً أفاد منه الصحابة الكرام - عليهم رضوان الله - فهذا عمر رضي الله عنه يوصي الناس بعد فيقول: «يا أيها الناس: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيته أريد أمر رسول الله ﷺ برأيي اجتهداً، فوالله ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب بين رسول الله ﷺ وأهل مكة، فقال: اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: ترانا قد صدقناك بما تقول؟ ولكنك تكتب باسمك اللهم، ف رضي رسول الله ﷺ وأبيت، حتى قال لي رسول الله ﷺ: تراني أرضى وتأبى أنت؟ قال: فرضيت»^(٢).

وكان رضي الله عنه يقول: «ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ،

(١) القصة أخرجها البخاري (٢٧٣١)، وينظر: سيرة ابن هشام ٣١٨/٢.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٥٥٨)، والطبراني في الكبير

(٧٢/١)، قال ابن كثير في مسند الفاروق (٤٩٧/٢): «حسن،

واسناد جيد».

حتى رجوت أن يكون خيراً»^(١).

وهذا سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول أثناء وقعة صفين: «أيها الناس اتهموا رأيكم، والله لقد رأيته يوم أبي جندل، ولو أنني أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته...»^(٢).

إن في هذه الحادثة العظيمة لدرساً عظيماً للشباب بأن يقتدوا بالصحابة الكرام، فلا يحملهم الغضب للدين على الاعتداد بآرائهم، والانتصار لها، والافتيات على أهل العلم، فهذه مزلة قدم، وطريق تعود على صاحبها بشديد الندم، وهي أحد الأسباب لركوب الشاب مسلك الغلو.

فتجد من الشباب من يتصدر للكلام في الأمور العظام كالدماء والتكفير والسياسة، وهو لا يحسن قراءة بعض سور القرآن، أو لم يستكمل قراءة كتاب واحد في العلم!

والواجب عليه إذا جاءه أمرٌ من هذه الأمور الكبار أن يفعل مثل ما فعل الصحابة، فيرجع لأهل العلم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وإن مما يحتم الرجوع إلى أهل العلم في مثل هذه الأمور

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٧٨٥).

هو أن الفتن إذا أقبلت لا يعرف خيرها من شرها إلا الراسخون في العلم؛ يقول الحسن البصري: «إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنما يُعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت، فأما إذا أقبلت فإنها تزَيِّن، ويظن أن فيها خيراً، فإذا ذاق الناس ما فيها من الشر والمرارة والبلاء، صار ذلك مبيناً لهم مضرتها، وواعظاً لهم أن يعودوا في مثلها»^(٢).

وكل هذا دليلٌ بيِّنٌ على وجوب الأخذ بمشورة أهل العلم، والإفادة من رأيهم؛ فإنهم أبعد نظراً، وأعمق إدراكاً. وقد قال أبو الطيب:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعِلْيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ^(٣)

وهاتان حكايتان وقعتا أثناء فتنتين عظيمتين، لأناس حادوا عن رأي أهل العلم فوق لهم ما يكرهون:

■ **الحادثة الأولى:** وقد وقعت أثناء فتنة ابن الأشعث، يحكيها سليمان بن علي الربيعي فيقول: «لما كانت الفتنة فتنة ابن الأشعث - إذ قاتل الحجاج بن يوسف - انطلق عقبة بن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٦٦/٧).

(٢) منهاج السُّنة (٤٠٩/٤).

(٣) ديوان المتنبي (١٧٤/٤).

عبد الغافر، وأبو الجوزاء، وعبد الله بن غالب في نفر من نظرائهم فدخلوا على الحسن البصري، فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: وذكروا من فعل الحجاج. قال: فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه؛ فإنها إن تكن عقوبة من الله، فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيا فكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، قال: فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العليّ! قال: وهم قوم عرب، قال: وخرجوا مع ابن الأشعث، قال: فقتلوا جميعاً.

قال سليمان: «فأخبرني مُرّة بن ذياب أبو المعدّل قال: أتيت على عقبة بن عبد الغافر وهو صريعٌ في الخندق فقال: يا أبا المعدّل، لا دنيا ولا آخرة»^(١).

فتأمل كيف أنهم قصدوا سؤال الحسن، وهم يعرفون مكانته، ولو لم يعرفوها لم يقصدوه، فلما لم يجبههم إلى سؤالهم، ويوافقهم في هواهم وصفوه بالعليّ!

■ **الحادثة الثانية:** وقد وقعت أثناء فتنة القول بخلق القرآن، يحكيها حنبل بن إسحاق، فيقول: «لما أظهر الواثق

(١) أخرجه ابن سعد (١٦٤/٧)، والدولابي في الكنى (١٣٥٠).

هذه المقالة، وضرب عليها وحبس، جاء نفر إلى الإمام أحمد، من فقهاء أهل بغداد، فقالوا له: يا أبا عبد الله: إن الأمر فشا وتفاقم، وهذا الرجل يفعل ويفعل، وقد أظهر ما أظهر، ونحن نخافه على أكثر من هذا، وذكروا له أن ابن أبي دؤاد مضى على أن يأمر بالمعلمين بتعليم الصبيان في الكتاب مع القرآن: القرآن كذا وكذا.

فقال لهم أبو عبد الله: وماذا تريدون؟ قالوا: أتيناك نشاورك فيما نريد. قال: فما تريدون؟ قالوا: لا نرضى بإمرته ولا بسلطانه. فناظرهم أبو عبد الله ساعة؛ حتى قال لهم: رأيتم إن لم يتم لكم هذا الأمر، أليس قد صرتم من ذلك إلى المكروه، عليكم بالنكرة في قلوبكم، ولا تخلعوا يداً من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ولا دماء المسلمين معكم، انظروا في عاقبة أمركم، ولا تعجلوا، واصبروا حتى يستريح برٌّ، ويستراح من فاجر.

فقال بعضهم: إنا نخاف على أولادنا، إذا ظهر هذا لم يعرفوا غيره، ويُمحى الإسلام ويُدرَس.

فقال أبو عبد الله: كلا؛ إن الله وَعَلَىٰ ناصر دينه، وإن هذا الأمر له ربٌّ ينصره.

فخرجوا من عند أبي عبد الله، ولم يجبههم إلى شيء مما عزموا عليه أكثر من النهي عن ذلك، والاحتجاج عليهم بالسمع والطاعة، حتى يفرج الله عن هذه الأمة.

فلم يقبلوا منه، وخرجوا من عنده، فلما خرجوا قلت:
يا أبا عبد الله، وهذا عندك صواب؟ - أي: أمر الخروج على
السلطان -. قال: لا، هذا خلاف الآثار التي أمرنا فيها
بالصبر، ثم قال أبو عبد الله: قال النبي ﷺ: «إن ضربك
فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن وليت أمره فاصبر». قال حنبل:
فمضى أولئك القوم، فكان من أمرهم أنهم لم يحمداوا، ولم
ينالوا ما أرادوا، اختفوا من السلطان، وهربوا، وأخذ بعضهم
فحبس، ومات في الحبس»^(١).

ففي هاتين الحكايتين دلالة عظيمة على فقه هذين
الإمامين؛ لأنهما يعلمان أنه يترتب على الخروج على الولاة
من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم.

كما أن في هاتين الحكايتين حفظ الله وعصمته لهذين
الإمامين - الحسن وأحمد - فإنهما - رحمهما الله - لم يأبها
بكلام من جاءهما يريد الخروج، ويحتج بالدين، والنصرة له؛
معرضاً عن عواقب هذا الأمر؛ فإن الناس - غالباً - يتأثرون
بمثل هذا الكلام، وتجيّش عاطفتهم، وتطيش عقولهم،
ويسارعون في الموافقة، فيفعلون شيئاً لا يحمد، وكم من مريد
للخير لم يبلغه.

ونحن في هذا الزمان بحاجة إلى إشاعة مثل هذه
المواقف المشرقة المبنية على الكتاب والسنة، وتثقيف الشباب

(١) ذكر محنة الإمام أحمد، لحنبل بن إسحاق (ص ٧٢).

بها؛ حتى يكون حماسهم مضبوطاً بحد العلم والعقل، فيأتوا البيوت من أبوابها، فيسلموا بذلك من أفكار الغلو.

وملخص المقال كلمة لطيفة للعلامة محمد الخضر حسين، يقول فيها: «في الشباب شجاعة، وفي الشيوخ تجارب، فإذا صدرت شجاعة الأمة عن آراء شيوخها الحكماء، فلا جرم أن يكون لها الموقف الحميد، والأثر المجيد»^(١).



(١) رسائل الإصلاح (٢/٢٨).

شوقٌ عجيبٌ إلى مكة

الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس خرجت مع رسول الله ﷺ للحج، وهي تعالج من أمرها شدة، وتقاسي نَصَباً، وتلاقي ثِقَلًا، فقد كانت في الشهر التاسع من حملها، والمرأة أشدُّ ما تكون في هذه الحال، ولما أتوا ميقات ذي الحليفة نزل عليها المخاض بأوصابه، فوضعت ابنها محمداً، فماذا صنعت؟

هل أرسلت للنبي ﷺ تطلب الرخصة في ترك الحج؟ فهي لم تحرم بعد، وهناك دواعٍ لأخذ الرخصة:

فالمراة تعاني وهناً حين تضع جنينها، فتحتاج من يتولى أمرها، وتطلب من يقوم بشأنها!

والطفل أشدُّ ما يكون ضعفاً حينما يخرج من بطن أمه، فيحتاج إلى مهارة في حمله وإطعامه!

والسفر قطعة من العذاب، ومكة بعيدة الشُّقَّة عن المدينة، يقطعها المسافر آنذاك في عشرة أيام تقريباً!

ووسيلة المواصلات إنما هي الأقدام أو الإبل؛ وهاتان الوسيلتان لا تلائمان امرأةً لتوها قد وضعت حملها!

فهل هذه الدواعي سوَّغت لأسماء طلب الرخصة؟
هل كانت هذه الأحوال سبباً في ترك أسماء للحج؟
كلا، كل هذه الأمور لم تمنع أسماء من العزم على
الحج، والمضيّ قدماً في طريقه!
فقد أرسلت للنبي ﷺ تسأله: كيف أصنع؟ فأجابها ﷺ
بقوله: «اغتسلي، واستثفري بثوب، وأحرمي»^(١).

إنه الشوق إلى البيت الحرام، والرغبة الشديدة في تأدية
هذه الفريضة العظيمة، هو الذي جعل أسماء تمضي لا تلتفت
إلى بأسها ولا إلى نفاسها، فرضي الله عنها.
إذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقتها المتيامن^(٢)

إن هذا الشوق أمر رباني، فقد طبع الله قلوب المسلمين
على الشوق إلى تلك البقاع الشريفة؛ وفي ذلك يقول الله ﷻ:
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾
[البقرة: ١٢٥].

قال الإمام ابن القيم: «أي: يثوبون إليه على تعاقب
الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً؛ بل كلما
ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقاً»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) البيت في الأغاني (٣٦/١) بدون نسبة.

(٣) زاد المعاد (٢٨/١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكعبة بيت مبنيٍّ من حجارة سود، بوادٍ غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه الأنفس من البساتين والمياه، ومع هذا فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله، وهذا مما يُعَلِّمُ بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوى النفوس وأبدانهم؛ ولهذا كان أمر البيت مما حيرَ هؤلاء الفلاسفة والمنجمين؛ لكونه خارجاً عن قوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كلُّ عاقل لبيب، مثل قول بعضهم: (إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يُبَخَّرُ ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع ليُقْبَلَ الناس إلى الحج)، وهذا مما يَعْلَمُ كلُّ مَنْ عرف أمرَ مكة أنه من أبين الكذب»^(١).

وقد صاغ هذا المعنى بأسلوب أدبيٍّ لطيف أمير البيان شكيب أرسلان فقال: «جعل الله مكة مكاناً لعبادته تعالى لا غير، وكأنه ﷺ لما قضى بأن تكون محلاً للعبادة ومثابة للناس وأمناً، قضى أيضاً بتجريدتها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرزها بشيء من وشي النبات، ولا أن يُخَصِّصَها بشيء من مسارح النظر المُنوَّقة، حتى لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله بخُضرة ولا غدير، ولا بنُضرة ولا نمير، ولا بهديل على الأغصان ولا هدير، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه ربه الكريم، لا يشوبه تطلُّعٌ إلى جنان أو رياض، ولا حنينٌ إلى

حياض أو غياض، فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الإنسان، وأقحل بقعة وقعت عليها العينان»^(١).

فسبحان من جعل هذا المكان أحبَّ الأمكنة عند المسلمين، وأعظم بقعة تهفو إليها قلوب العابدين.

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا مِنْ مَلاحَةٍ ولكنَّه شيءٌ به الرُّوحُ تَكَلَّفَ^(٢)

ترى الكعبة السوداء، كأنما أُفرغت في قالب الجمال، ووسمت بميسم الحُسْن، ونيطت بها نياشين الشرف، فلا تمل مرآها، ولا تزال تهواها:

لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عنها حين ينظرُها حتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مشتاقاً^(٣)
فيا عجباً، ما هذا الهوى اللازم؟ وما سرُّ هذا الحب الجاثم؟

إنه دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام لما دعا فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

يقول سعيد بن جبير: (لو قال أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: أفئدة من الناس تهوي إليهم، فهم المسلمون)^(٤).

(١) الرحلة الحجازية (ص ٤٩).

(٢) البيت، لمحمد بن داود الفقيه كما في مصارع العشاق (٢/ ٥٨).

(٣) البيت، لأبي نواس كما في ديوانه (ص ٢٥٧).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٩٨).

فبدعوة إبراهيم هذه هَوَتْ إلى هذا المكان الأفتدة، وجاءت إليه الوفود وهي مشتاقة راغبة؛ يقصدونه كأنما يقصدون أجمل بقاع الدنيا، ويؤمنونه كما يؤمنون الأرض ذات الأهوية العلية، ويتحملون من أجله الشدائد الشديدة، ويلقون في طريقه المتاعب العظيمة، قد فاضت نفوسهم إليه شوقاً، وامتألت قلوبهم إليه حباً، يصور هذا المشهد الإمام ابن القيم فيقول: «فَلِلَّهِ كَمَ لَهَا مِنْ قَتِيلٍ وَسَلِيبٍ وَجَرِيحٍ، وَكَمْ أَنْفَقَ فِي حُبِّهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْوَاحِ، وَرُضِيَ الْمَحَبُّ بِمُفَارَقَةِ فَلَذِ الْأَكْبَادِ وَالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَوْطَانِ، مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْوَاعَ الْمَخَافِ وَالْمَتَالِفِ وَالْمُعَاطَبِ وَالْمَشَاقِ، وَهُوَ يَسْتَلْذِ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْتَطِيبُهُ، وَيَرَاهُ - لَوْ ظَهَرَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي قَلْبِهِ - أَطْيَبَ مِنْ نَعِيمِ الْمُتَخَلِّفِينَ وَتَرْفُفِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ.

وليس محبباً من يَعُدُّ شِقَاءَهُ عَذَاباً إِذَا مَا كَانَ يُرْضِي حَبِيبَهُ

وهذا كُلُّهُ سِرٌّ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته»^(١).

حتى إذا شاهدوا البيت الحرام فاضت منهم العبرات، وانهلَّت العيون دامعات، ونسوا أوصاب الطريق لما رأوا بيته العتيق، فلا تسل حينها عن القلوب كيف تخشع، وفي ذلك يقول ابن القيم في ميمَّته:

(١) زاد المعاد (١/٢٩).

ولما رأت أبصارهم بيته الذي قلوبُ الورى شوقاً إليه تضرُّمُ
 كأنَّهم لم ينصبوا قطُّ قبله لأن شقاهاً قد ترحَّل عنهم
 فلِلَّه كم من عَبْرَة مُهْرَاقَة وأخرى على آثارها تتقدَّم
 إذا عاينته العين زال ظلامُها وزال عن القلبِ الكئيبِ التَّأَلَمُ^(١)

إن هذا الشوق العجيب هو الذي جعل غاية أمانى المسلم
 البعيد عن المسجد الحرام أن يصل إليه؛ فتراه يجمع ماله سنين
 عدداً، ويلقى في ذلك جَهداً عظيماً ونصباً، ويجأر إلى الله
 بالدعاء أن يبلغه هذا المكان قبل أن يغادر الدنيا!

وبعد هذا أفلم يأنِ لأولئك الميسورين القادرين على
 الحج أن تشتاق قلوبهم إلى البيت الحرام، فيؤدوا فريضة
 الحج؟

ألم تهفُّ قلوب أولئك القوم الذين مضت عليهم السنون
 الطويلة لم يزوروا البيت، وهم قادرون مستطيعون أن يقصدوه
 بعمره أو صلاة؟

اللَّهُمَّ أيقظنا من رقدة الغافلين، ولا تجعلنا محرومين.



هكذا مشى الرسول ﷺ

بإجماع أهل الطب أن ممارسة الرياضة ينفع في حفظ الصحة، والوقاية من الأمراض بإذن الله، وفي زماننا - بحمد الله - انتشرت ثقافة المشي، وأبرزت فوائدها، وأدرك الناس حقيقتها، فأقبلوا عليها، وخصّصوا لها الأوقات، ووُضعت من أجل ذلك الميادين، ورُصفت في ذلك المضامير.

ويحسن هنا ذكر صفة مشي النبي ﷺ وكيف كان يسير؟
يصف أنس بن مالك رضي عنه مشي النبي ﷺ فيقول: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ»^(١).

ويصف علي بن أبي طالب رضي عنه مشيه ﷺ فيقول: «إذا مشى تكفأ تكفؤاً؛ كأنما انحط من صَبَب»^(٢).

وقد اختلف في معنى: «تكفأ» على قولين^(٣):

فقليل: مال يميناً تارة، وشمالاً أخرى كما تميل السفينة.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧) وصحّحه.

(٣) ينظر: مطالع الأنوار (٣/٣٧٣)، مرقاة المفاتيح (٩/٣٧٠٤)،
العرف الشذي (١٤/٥).

وخطأ هذا التفسير الأزهري، ووافقه ابن قرقول، وعلل ذلك بأنها مشية المختال.

وقيل: أي: تمايل إلى القدام؛ ويؤيده قوله: «كأنما انحط من صيب» وهذا هو الأظهر.

ومعنى: «كأنما انحط من صيب»؛ أي: كأنما ينزل من موضع منحدر^(١).

ووصف مشيه لقيط بن صبرة فقال: «جاء رسول الله ﷺ يَتَقَلَّعُ»^(٢).

ومعنى «يَتَقَلَّعُ» قال البغوي: «أي: إنه كان يمشي مشياً قوياً؛ يرفع رجله من الأرض رفعاً بائناً»^(٣).

ويقول ابن عباس: «كان النبي ﷺ إذا مشى مشى مجتمعاً، ليس فيه كسل»^(٤).

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه: «ما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ؛ كأن الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث»^(٥).

(١) عمدة القاري (١٦/١٥٤)، التنوير في شرح الجامع الصغير (٨/٢٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٣) وإسناده صحيح.

(٣) شرح السنة (١٣/٢٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣٠٣٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٨١): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٥) أخرجه أحمد (٨٩٤٣)، والترمذي (٣٦٤٨) واستغربه.

وقد علّق الإمام ابن القيم على أحاديث مشيته ﷺ فقال: «التَّقَلُّعُ الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت؛ فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه، ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب؛ مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضاً، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً، وإما أن يمشي هوناً، وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر، ولا تماوت، وهي مشية رسول الله ﷺ؛ فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه، ورسول الله ﷺ غير مكترث، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهانة؛ بل مشية أعدل المشيات»^(١).

وأما الأمر بالمشي حافياً فقد ورد من حديث عبد الله بن بريدة، أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه فقال: ... ما لي لا أرى عليك

(١) زاد المعاد (١/١٦١).

حذاء؟ قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتمي أحياناً^(١)، وسنده ضعيف.

والمحفوظ من هديه ﷺ الحث على الانتعال.

وقد جاء في السنة ما يدل على أن الإسراع في المشي يدفع تعب المشي، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: إن قوماً شكوا إلى رسول الله ﷺ المشي، فدعاهم، فقال: «عليكم بالنَّسْلان» قال: فنسلنا، فوجدناه أخف علينا^(٢).

وفي رواية أن الرسول ﷺ قال لهم: «استعينوا بالنسل، فإنه يقطع عِلْمَ الأرض، وتَخْفُونَ له»، قال: ففعلنا فخففنا له^(٣).

و«النَّسْلان» - بفتح النون والسين - يقال: نَسَلَ الماشي، يَنْسِلُ وَيَنْسُلُ نَسْلاً وَنَسْلاً وَنَسْلَاناً، وهو مقارنة الخطو مع الإسراع^(٤).

وقد وصفه ابن القيم فقال: «العَدُوُّ الخفيفُ الذي لا يزعج الماشي ولا يُكرِثه»^(٥).

ومن فوائد هذا النوع من المشي؛ قال ابن الأعرابي:

(١) أخرجه أبو داود (٤١٦٠).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه، المطالب العالية (٣٩٨/٩)، وحسنه ابن القيم في إعلام الموقعين (٣٠٠/٤).

(٣) صحيح ابن حبان (٢٧٠٦).

(٤) المحكم (٤٩٩/٨)، غريب الحديث، لابن قتيبة (٥١٧/١).

(٥) زاد المعاد (١٦١/١).

«النَّسْلُ يَنْشُطُ»^(١).

وأهل اللغة^(٢) يوردون أثراً أن عمرو بن معد يكرب شكا إلى عمر رضي الله عنه المَعَصِ^(٣)، فقال: «كذب»^(٤)؛ عليك العَسَلُ»^(٥)؛ أي: عليك بسرعة المشي؛ فالعَسَلُ هنا يطلق على سرعة المشي^(٦).

وهذا النوع من المشي فائدته أكثر، وجدواه أظهر.



- (١) غريب الحديث، لابن الجوزي (٢/٤٠٥).
- (٢) جمهرة اللغة (٢/٨٤١)، النهاية (٤/١٥٨).
- (٣) المَعَصُ: التواءٌ في عَصَبِ الرَّجْلِ. ينظر: الصحاح (٣/١٠٥٧).
- (٤) في معناها يقول الزمخشري في الفائق (٣/٢٥٢): «كلمة جرت مجرى المثل في كلامهم ولذلك لم تصرف، ولزمت طريقة واحدة في كونها فعلاً ماضياً معلقاً بالمخاطب ليس إلا؛ وهي في معنى الأمر كقولهم في الدعاء: رحمك الله، والمراد بالكذب الترغيب والبعث. من قول العرب: كذبتة نفسه؛ إذا مَنَّتْه الأمانى، وخيَّلت إليه من الآمال ما لا يكاد يكون؛ وذلك ما يرغَّب الرجل في الأمور، ويبعثه على التعرض لها. ويقولون في عكس ذلك: صدقته نفسه؛ إذا ثبُطته وخيَّلت إليه المعجزة والنكد في الطلب».
- (٥) ولم أقف على إسناده.
- (٦) قال في مختار الصحاح (ص٢٠٨): «(الْعَسَلُ) الْخَبَبُ، يُقَالُ: (عَسَلَ) الذُّبُّ يَعِيسِلُ بِالْكَسْرِ (عَسَلًا) وَ (عَسَلَانًا) بِفَتْحَتَيْنِ فِيهِمَا؛ أَيُّ: أَعْتَقَ وَأَسْرَعَ، وَكَذَا الْإِنْسَانُ».

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
النية الصادقة وعطاياها المدهشة	٧
من بركات نصره التوحيد	١٥
العارفون لا يعجبون بأنفسهم	١٩
سكرة المنصب	٢٨
شهوة الكلام	٣٤
القرآن جلاء القلوب	٣٧
من وثب إلى صلاته صلحت أمور حياته	٤٣
عبادة يسيرة تعدل ثواب الحج	٤٧
بر الوالدين كفارة الكبائر	٥١
أسعد زوج عرفته الدنيا	٦٠
الزوجة المستشارة	٦٥
وعافني فيمن عافيت	٧١
السخاء بالدعاء	٧٧
مبادرات الموفقين	٨٤
سلطان الحب	٨٩
سلطان الغضب	٩٣
إعلان الحب	٩٩
النميمة الحسنة	١٠٥

١١٠	كن معاذ المجلس
١١٤	ما علمت عليه إلا خيراً
١١٩	كذلك كتتم من قبل فمن الله عليكم
١٢٦	طبائع الأصحاب
١٣١	أخطأ فلان!
١٣٧	النصيحة المفقودة
١٤١	التغافل شيمة الأفاضل
١٤٦	الاعتذار خلق الكبار
١٥٢	فهلاً نملة واحدة
١٥٧	حين يوفّي الأستاذ أمانة الإشراف
١٦٠	صانع الأقفال الذي أضحى عالماً
١٦٦	بركة العلم
١٧٣	تَوَقَّعْ ابْنُ قدامة أن يكون هذا العالمُ شيئاً ولكن!
١٧٦	والله لا جاء منك شيء!
١٨٢	اكتشاف الموهبة
١٨٧	طالب لم ينشئه والدي
١٩٠	الشيخ محمد موسى «صاحب ابن باز»
١٩٦	والدي وثوب العيد
٢٠٠	لا تحقرن من المعروف شيئاً
٢٠٦	لا أنساها لطلحة!
٢١٠	الشفاعة الحسنة
٢١٤	تلك صدقةٌ يُعْفَلُ عنها

٢٢٠	المروءة البكرية
٢٢٥	متفائل ومتشائم
٢٣٢	حماسة الشباب، وروية أهل العلم
٢٤٣	شوقٌ عجيبٌ إلى مكة
٢٤٩	هكذا مشى الرسول ﷺ
٢٥٤	فهرس الموضوعات